سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ
١

المَبَانِي الإِيمَانِيَّةِ لِلتَّرْبِيَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

د . محمد محمود مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

المباني الإيمانيَّة للتربية الإسلاميَّة

-د. محمد محمود مرتضى-

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٤ م - ١٤٤٥هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ ١

المَبَانِي الإِيمَانِيَّة لِلتَّرْبِيَةِ الإِسْلَامِيَّة

د. محمد محمود مرتضى

براثا
مَرْكَزُ بَرَاثَا لِلدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
بَيْرُوتَ - بَغْدَادُ

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ

الحياة الطيبة هي أحد تجليات القيمة الغائية النهائية لوجود الإنسان، ولا يمكن المسير إلى القرب من الله -تعالى- إلا بالالتزام بقيم النظام المعياري الإسلامي، والسعي إلى تحقيق كافة الأهداف والقيم الإنسانية المطلوبة. إنَّ قيمَ التربيةِ ومرادفاتها مثل: (التزكية والتعليم و...) كانت من أولى أولويات الأنبياء والمصلحين في القرآن الكريم؛ يقول -تعالى-: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وتُعَد علوم التربية بالنسبة للنظام التربوي كالبذرة بالنسبة للشجرة فهي مصدر انبثاق الجذور والسيقان والأوراق والزهور والثمار، كذلك علوم التربية هي التي ينبثق منها أهداف التَّربية ومناهجها ومراحلها وطرقها ووسائلها، وتُقدَر دقة علوم التَّربيَة وصوابها بقدر ما يكون في النظام التَّربوي من فاعلية.

إذا كانت التَّربيةَ عملية اجتماعية، فإنها تستمد مادتها من ثقافة المجتمع، وتتبنى غاياته وطموحاته، وتنطلق بالتالي من فلسفته وإطاره الفكري العام؛ فالمربي لا يستطيع أن يربي إن لم يكن على وعي بسياسة المجتمع واقتصاده وعقيدته وتياراته الفكرية الفرعية ومجمل آدابه وأعرافه، لكنَّه -عملاً- لا يستطيع أن ينغمس في كل هذا، ومن هنا كان لابد له من الاستناد إلى خيط يضم (حبات المسبحة)، وما ذاك إلا من خلال الوعي بالركائز الأساسية للمنظومة الفكرية التي يقوم عليها المجتمع، وتعيش بها وعليها الأمة، وبما أنّ هناك عدةَ اتجاهات ومدارس في تحديد القيم التربوية وأسسها ومصادرها، قررنا في (مركز براثا للدراسات والبحوث) ومن خلال (سِلْسِلَةُ الدِرَاسَاتَ التَرْبَوِيَّة) تقديم أهم الأُسُس التي قامت عليها القيم التربوية في الغرب المادي الحديث في مشروعه الحضاري، في مقابل الرؤية الإسلامية للقيم التربوية في ظل المشروع الحضاري الإسلامي.

● مقدّمة

يبحثُ هذا الكتاب في أهمِّيَّة المباني الإيمانيَّة للتربية الإسلاميَّة للفرد المسلم، ويحدد بعض معالمها الرُّوحيّة والسلوكيَّة، مبيناً في مباحث عديدة، أهمِّيَّة وعي الإنسان لدوره ومسؤوليَّته كخليفة لله مستأمن على الأرض إلى حين. ونحاول هنا إضاءة سبل وصول الإنسان إلى تكامله الرُّوحيّ والأخلاقيّ من خلال إظهار أهمِّيَّة المجاهدة النفسية والرُّوحيّة، والانفتاح على قيم الحق وأخلاق الرسالة والاقتداء الحسن بالرسول الكريم(ص) وآل بيته الأطهار(ع).

وإننا نأمل أنْ يجد القارئ الكريم في أفكار هذا الكتاب -وإضاءاته المتنوعة على كثير من أخلاقيّات الرسالة وقيمها العمليَّة- ما يمكن أنْ يلبي حيزاً مهماً من حاجته الرُّوحيّة على طريق سعيه للوصول إلى حالة السمو والتكامل الرُّوحيّ والأخلاقيّ. فالإسلام هو دعوة حق وخير ورسالة عدل وكرامة إنسانيَّة، وهي لا تتحقق كفائدة فرديَّة ومجتمعيَّة إلا بتربية النفس وتهذيب السلوك، ومعرفة العبادات بصورة حقَّانيَّة صحيحة.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين

محمد مرتضى

بيروت ٣٠-٤-٢٠٢٤ م الموافق ٢١ شوال ١٤٤٥ هـ

الفصل الأول

العِلّة من وراء عملية خَلْق الإنسان!

● المبحث الأول:
الحكمةُ الإلهيَّة وغاية الإنسان

إنّ معرفةَ أسباب الخَلْق البشريّ والبحث في الغاية منها، يُعدُّ من أهم المباحث المطروحة على مستوى العلم والعقل والتفكير البشريّ، بل وأكثرها تأثيراً في وعي الإنسان وسلوكه وعلاقاته ونظرته للحياة من حوله..

وتـأتي هذه الأهمِّيَّة من محاور عدة، أبرزها: أنَّ هذه المعرفة هي سؤال عام لدى كل الناس، يبحثون من خلاله عن إجابات حقيقيَّة تلبي فطرتهم وهواجسهم، حيث إنَّه من الصعب جداً أن نجد إنساناً يتطلع إلى الحياة، ولم يندفع في سبيل غاية وهدف يسعى لتحقيقه في كل حركته ووجوده ومشاريعه الخاصَّة والعامَّة..

وهذه الروح المتوقدة بالغائيَّة والهدفيَّة، هي التي ترسخ حس البقاء في جوَّانيَّة الإنسان، ولولاها لعاش فقدان الأمل واليأس الوجودي، ولَوَاجَهَ الموتَ كخيارٍ نهائي أفضل من حالة البقاء العبثي في هذه الدنيا.

ولكن الإنسان المؤمن المتطلع بشوق لغاية مطلقة وقدرة لا متناهية عظيمة، هو الذي ينظر إلى الحياة بمسؤولية وحكمة، لأنه مرتبط بالله

الخالق لكل شيء بغاية وهدف وحكمة عظيمة... يقول ،تعالى،: ﴿**رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**﴾[آل عمران:١٩١]، ويقول ،تعالى،: ﴿**قالَ رَبُّنَا الَّذى أَعْطى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى**﴾[طه: ٥٠].

وفي هذا السياق نجد أنه من الممكن أنْ نثير هنا مسألة مُهمَّة، وهي أن كل ما يجدُّ الإنسان في البحث عنه، هو في أصله وبنيته الذَّاتيَّة، متعلق بطبيعة الغاية التي وضعها وأرادها لنا الله، عزَّ وجلَّ، من عملية الخلق كله، على مستوى الفعل والحضور والسعي للوصول، والمحاسبة والجزاء في خط المسؤوليَّةَّ في الدنيا والآخرة..

إنَّ الغايات في حياة الإنسان كثيرة ومتعددة، وكل واحد من الناس لا يمكن أن يعيش حياته من دون وجود هدف أو غاية يتطلع إليها، ويسعى لتجْسيدِها وتحقيقها عبرَ طرق ووسائل مختلفة، وربما يبذل في سبيلها كل ما هو غال ورخيص.. والغاياتُ قد تكونُ ماديَّة أو معنويَّة، حسِّيَّة أو رمزيَّة، بما يعني أن الغايات تختلف من مجتمع لآخر، والاختلافُ ناجم أساساً عن طبيعة القيم والخلفية القِيْميَّة الحضاريَّة السائدة فيه والمتبنَّاة من قبله.. فالمجتمعاتُ التي تقومُ على أسسٍ ماديَّة تمجِّد الحس واللذَّة، ولا معنى فيها لقيم روحية أخلاقيَّة عليا تستند على بعد غيبيٍّ، بينما في المجتمعات القائمة على الإيمان بالله والروح والقيم الأخلاقيّة، جوهر القضيَّة فيها يكون في وجود غاية مثلى ومثل أعلى مرتفع يسعى الناس إليه، فهو سرُّ الوجود على هذه الأرض..

● المبحث الثاني:
سبيل معرفة الغاية والهدف

إنَّ الغاية التي خلق اللهُ، ،تعالى، الإنسانَ من أجل الوصول إليها، ترتبط مباشرة بالنفس والروح، ولهذا يجب علينا معرفة هذه النفس، والكشف عن حقيقتها، من أجل إدراك تلك الغاية بذاتها، والوقوف على سبل الوصول إليها.. جاء عن النبيّ الكريم(ص): «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].. وهذا يعني أنَّ بدء المسيرة نحو تلك الغاية مشروط أوَّلاً بمعرفة النفس، والتأمل الفكري في جوهرها وحقيقتها، بما يرشدنا إلى الغاية التي خلق الله الناس والبشريّة من أجلها.. وهذه النفس تنطوي ذاتها على كلمات الحقيقة، وما على الإنسان سوى أن يملك إرادة فتح كتاب خلقته، ويقرأ بين سطوره وصفحاته ليصل إلى معرفة الغاية..

وهذا الكتاب في الواقع هو كتاب "الفطرة الإلهيَّة" التي فطر الله، تعالى، الناس عليها، تتمثل فيها لمسات الخالق العظيم في سرد أسرار هذا الوجود الإنساني.. يقول تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[الروم:٣٠].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، باب استعمال العلم والإخلاص في طلبه، ح ٢٢، ج٢، ص٣٢.

إنّ اللهَ ،تعالى، الذي خلقَ الإنسان، ونَفخَ فيه من روحه، كتبَ غاية خلْق هذا الإنسان على صفحات كتاب نفس هذا الإنسان، وما على الإنسان سوى أنْ يملك بصيرة وعقلاً سليم ليقرأ صفحات كتاب نفسه.. يقول النبيّ الكريم(ص): "يا عليُّ! إذا تقرّب العباد إلى خالقهم بالبرّ فتقرّب إليه بالعقل تسبقْهم".[1]

ولطالما قرأنا في كثير من نصوص القرآن والسنة عن ضرورة التفكر العقليّ بجوهر النفس ومعرفة معالمها وتوجهاتها، والتأمل في هذه الفطرة، وذلك من أجل الوصول إلى معرفة غاية الخلق والوجود..

● المبحث الثالث: ماهيَّة الفطرة وأهم مميزاتها

الفطرة هي أصل الخلقة والهيئة التي خلق عليها الإنسان، والصبغة التي صبغه الله بها منذ أن أوجده في هذا العالم، يقول تعالى: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[الروم: ٣٠]، ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ**﴾[البقرة: ١٣٨]. وتتميز الفطرة الإنسانيَّة بمزايا متعددة نورد بعضها فيما يأتي:

أوّلاً: الله ،تعالى، أودع في الإنسان، كلِّ إنسان، فطرة هي نفسها في كل

---

١ - علي الطَّبَرْسيّ، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص ٤٤٠، الفصل الثاني في صفة العقل، ح ١٤٧٦.

البشر، أي أنها تكون مشتركة بينهم على اختلاف الأزمان والأمكنة، وهي لا تتأثّر بالعادات والجغرافيا، ولا تتغير مع وجود كل تلك التنوعات والتمايزات في التقاليد والمُناخات الاجتماعيَّة وطبيعة الأنظمة السياسيّة والفكريَّة، وغيرها.

ثانياً: الفطرة ليست من الأمور التي يكتسبها الإنسان في حياته بعد ولادته، بل هي ميول ورغبات تكون مختزنة في داخله، ومزروعة في داخله منذ أنْ خُلق الإنسان.

ثالثاً: تطلب الفطرة ما هو أرقى وأفضل وأكمل، بمعنى أنَّها لا تقف عند حد، فميولها ممتدة، وطلباتها كبيرة، لا تشبع، وترنو إلى الكمال دوماً..

● المبحث الرابع: غاية الخلْق البشريّ

إنّ التفكّرَ العقليّ في أصلِ الخلقة، أيْ في الفطرة الإنسانيَّة لا بدّ أنْ يقودنا -من حيث المبدأ- إلى معرفة الغاية الحقيقيَّة التي تشكل بذاتها رسالة ونداءً إلهيّاً.. جاء عن إمامنا الكاظم(ع) قال: "يا هشامُ! إنّ لله على الناس حجّتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمَّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمَة(ع)، وأما الباطنة فالعقول"[1]. فعندما نتحرك خلف وجهة هذه

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ط٥، عام ١٣٦٣هـ.ش، كتاب العقل والجهل، ح ١٢، ج١، ص١٦.

الميول بالاستناد لعقل سننتهي إلى الغاية، لأنّ الله ،تعالى، لا يُعقلُ أنْ يجعلَ فينا ميولاً وتوجّهات نحوَ أشياءَ لا ينبغي أنْ نسعى نحوها، إنّ مثلَ هذا الظّن هو تخيل وتَوَهُّم في غير محله، وهو مرفوض لأن في داخله تهمة للخالق.. فالله ،تعالى، لا يرشد إلى أي عمل ولا يحض على أي سلوك إلّا لأنَّ فيه غاية وحكمة لمصلحة الإنسان.. والحكمة هنا تعني أنَّ أفعاله لها غاية وهدف.

وعندما يتفكر الإنسان في ذاته ويتأمل في حقيقته، فإنه سيصل لمعرفة كثير من الميول النفسيّة والفطريَّة التي تتحرك على نحو مدهش، لتكون بمنزلة دوافع لكثير من فعالياتنا ونشاطاتنا الوجوديّة.. تهيمن وتسيطر على الجسم، وتجعله يأتمر بها وينقاد لمقتضياتها.. وهذه التوجهات (والمساعي) الفطريَّة هي:

١. السعي في طلب العلم (حبّ الكشف والاستطلاع).
٢. طلب القدرة (حبّ السلطة والنفوذ).
٣. طلب العاطفة (الحبّ والعشق).

فكلّ إنسانٍ يسعى منذ بداية تفتحه الحياتيّ طالباً للعلم والقدرة والعاطفة. لكنّ ظهور وصعود الميول سيكون محتاجاً لفترات زمنية تتفاوت نسبياً بين شخصٍ وآخر. وإذا دققنا النظر في كل أعمال البشر ومختلف سلوكياتهم وعلاقاتهم، فسنكتشف الدوافع والخلفيات الحقيقيَّة الكامنة وراء أي فعل يصدر عنهم، مهما بلغت درجة بساطته، فالغاية في

النهاية هي تلبية وتحقيق إحدى تلك الرغبات والميول الآنفة الذر.

إنَّ كل إنسان على هذه البسيطة، ومنذ فجر الخليقة، يتطلع إلى المعرفة والاستكشاف، ومحاولة التعرف إلى أسرار الحياة ومجاهيلها أينما كانت.. كما أنه يأمل لو أنه يقدرُ على فعلِ أي شيء يريد.. وهو يسعى ويتحرك باستمرار للتعلق بكل ما يُشبعُ ويلبي احتياجاته النفسيّة العاطفيّة.

إنها أمنيات ورغبات متأصلة ومتجذرة في داخل كل واحد منّا، بصرف النظر عن موقعه ومكانته وزمانه.. وسواء أخفاها الإنسان أم أعلنها، فهي تبقى حاضرة في واقعه الخاص والعام، ومؤثرة في سلوكياته وأفعاله.

وهنا علينا أن نتذكر دوماً أنّ الإنسان عموماً هو مخلوق أو كائن حر مختار، وإنْ بقدر.. ولهذا وجود تلك الرغبات عنده، وضغطها الدائم عليه للتمثل والسلوك، لا يعني البتة أنّه سيحقِّقها ويلبيها بوسائل وأدوات وسبل صحيحة وعقلانيَّة..!!. فقد تضعف هذه الميول أمام نوازع وميول أخرى غير فطريَّة، وقد تختفي خلف قيم قبيحة في المجتمع، بحسب قناعة الشخص وقوة أو ضعف إرادته وحسن أو سوء اختياره..

- **المبحث الخامس:**

الله ،تعالى، هو الغاية والمنتهى

ومن يدقق بعمق في تلك الميول الذَّاتيَّة الكامنة في كل فرد بشري، يجد

أن لها ميزة مُهمَّة لافتة، وهي أنَّها ميول غير محدودة وآفاقها واسعة وممتدة.. فرغبة الإنسان -أي إنسان- في العلم والمعرفة، لا حد لها، والتوصيف ذاته ينطبق على طالب الإنسان للمعرفة والعلم ليس له حدّ، بل كلّما تمكن المرء من الوصول إلى درجة من المعرفة سيطلب درجة أخرى متطورة وعالية أكثر فأكثر. والكلام نفسه ينطبق على الإنسان الساعي لامتلاك القوة والنفوذ. وأيضاً حب الإنسان وعشقه الكامن في نفسه هو بدوره لا يعرف الارتواء..

إنَّ الإنسان مخلوق فيه من العاطفة الشيء الكثير، لهذا يتوجه من خلال هذه العواطف الجياشة الممتلئة بها نفسه والنابعة من القلب، نحو المحبوب الذي يرى فيه الكمال والسعادة والهناء، وإذا ما وجد هذا القلب محبوباً أكمل فإنّه سينتقل إليه وسيحاول التقرب منه واللقاء به. فقد أودع الله فينا -نحن البشرَ- مجموعة ميول فطريَّة جوَّانيَّة لا حدود لها، تدفع المرء لما هو أكمل بشكل دائم. يذكر الإمام الخميني في وصية من وصاياه، في خطاب لابنه أحمد:

"اعلم أنّ في الإنسان -إنْ لم نقل في كلّ موجود- حباً فطرياً للكمال المطلق وللوصول إلى الكمال المطلق. وهذا الحب مما يستحيل أن يفارق الإنسان كلياً. كما أنّ الكمال المطلق يستحيل أن يتكرّر أو يتثنّى. فالكمال المطلق هو الحق جلّ وعلا.. والجميع يبحثون عنه، وإليه تهفو قلوبهم ولا يعلمون، إلخ"..[1].

١ - الإمام الخميني، وصايا عرفانية، ص٢٠-٢١.

إنّ الله، جل وعلا، خلقنا ونفخ فينا من روحه، ولهذا هو لن يحرمنا أو يمنعنا من الكمال والسعي باتجاه نيله.. لأنَّ هذا المنع لا يتناسب مع رحمته التي وسعت كل شيء.. وعليه فإنّ وجودَ هذه الرغبات والميول نحو الكمال الذي لا حدّ له، لَهَو دليلٌ واضح على أنّ الكمالَ اللامتناهي هو الغاية التي ينبغي أنْ نسعى إليها، وقد خلقنا الله ،تعالى، لذلك.

من هنا، إنّ العشقَ الفطريّ الكبير للكمال الذي أودعه الله فينا، لا يرضى بجميع غايات الدنيا وأغراضها لتلبية كماله.. لأنها أغراض محدودة وغايات ناقصة، فكيف يرضى طالب الكمال غير المحدود بكمال نسبيٍّ مبتور وناقص؟.. يقول ،تعالى،: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[النجم: ٤٢].

الفصل الثّاني

كمالُ الإنسان

● المبحث الأول:
الكدحُ الارتقائيّ إلى اللهِ وكمال اللقاء

إنَّ سعي الإنسان إلى الكمال، هو سعي للقاء الله، جلّ وعلا، وهو أرقى وأجلّ كمال ممكن للإنسان، ومقامه أعلى المقامات وأرفعها.. فاللهُ ،تعالى، هو مالكُ المُلك اللامحدود، وصاحب الكمال المطلق، والقدرة العظيمة اللامحدودة، والعلم المطلق والرحمة المطلقة، وسعادة الإنسان تكمن هنا في سعية للتقرب منه، عزَّ وجلَّ، والبشرى جاءت في قوله ،تعالى،: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[البقرة: ٢٢٣].. ووعده عظيم لكل من يتطلع للقائه: ﴿**مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[العنكبوت: ٥].. كما أنَّه وصف تعالى المكذّبين بلقائه بأنهم خاسرون وغير مهتدين: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[يونس: ٤٥].. أنّ الكافرين بلقائه هم في الحقيقة يائسون من رحمة الله، ولهم عذابٌ أليم ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**﴾[العنكبوت: ٢٣].. وأنّه ،تعالى، سوف يكلهم إلى أنفسهم ويذرهم في عماهم ﴿**فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[يونس: ١١].. أما أهل التقوى والخشوع

فهم موقنون بلقاء ربّهم وأنّهم إليه راجعون ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ**﴾[البقرة: ٤٥ - ٤٦]. يتطلعون بلهفة وشوق وفرحة إليه جلّ وعلا: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ**﴾[المؤمنون: ٦٠].. وهم موقنون أيضاً بأنّ الله، جل وعلا، لم يخلقهم عبثاً ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**﴾[المؤمنون: ١١٥]... ولهذا هم يعلمون ويدركون أن الله، عزَّ وجلَّ، خلقهم وأوجدهم لأجله: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسى**﴾[طه: 41].. وهذا الإيجاد والخلق منه ،تعالى، يجعلهم مطمئنين بأن الرجوع والمنتهى إليه ،تعالى،: ﴿**إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى**﴾[العلق: ٨]، راضيةً بالدخول في عباده الصالحين والوفود إلى جنّة لقائه ﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلى فى عِبادى وَادْخُلى جَنَّتى**﴾[الفجر: ٢٧ - ٣٠].

- **المبحث الثاني:**

ما المطلوب لكي نتمثَّل قيم الله في حياتنا وسلوكنا؟

يجب التوضيح بداية أنَّ موضوع اللقاء مع الله، عزَّ وجلَّ، لا يعني بأي حال من الأحوال اللقاء الحسي الماديّ العيانيّ، لأنَّه ،تعالى، لا يحدُّه شيء، ولا يراه أحد، ولا يدركه مخلوق.. لأنه ليس بجسم، وهو منزَّه عن كل شيء،

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[الأنعام: ١٠٣].. إذاً هو لقاء مختلف معنوي يقوم على أساس حضور الله في حياتنا، أيْ حضور القيم المعنويَّة واللقاء بصفاته ،تعالى، ومحاولة تمثُّلها عمليّاً، يأتي على سبيلين ونحوين، لقاء في الدنيا ولقاء آخر في الآخرة (عند البعث والنشور).. واللقاء بالله ،تعالى، (وهي أعلى وأشرف المراتب والدرجات) لا تتيسر إلا لمن أصبح الله حاضراً دائماً في حياته وسلوكه، وفي جميع شؤون حياته، يقول تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[الحديد: ٤].﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[ق: ١٦]..

إنَّ شرطَ سعي الإنسان للحصول على مقعدِ صِدقٍ عند الله، هو أنْ يكونَ، تعالى، حاضراً في وعي الإنسان وسلوكه، بحيث لا يرى هذا الإنسان شيئاً إلا ويكون الله حاضراً له فيه، ثم بعد ذلك يؤدّي على أساس هذا الشهود جميع الأعمال خالصةً لوجه الله. وهذا ما أوصى به النبيّ الكريم(ص) أبا ذر(رض): "يا أبا ذرّ إنك منّا أهلَ البيت، وإني موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّها جامعة لطرقِ الخير وسبلِه، فإنك إن حفظتها كان لك بها كفْلان، يا أبا ذرّ اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، واعلم أنَّ أول عبادة الله المعرِفة به"[1]. وهذه الحالة تحصل للإنسان في

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٧٦.

حياته الدنيويّة فقط كنتيجة عملية لسيره على سبل التطهر والعفاف والتقوى والفضائل الأخلاقيّة وتهذيب نفسه.. وقد سألَ رجلٌ يقال له ذعلب أمير المؤمنين(ع): "هل رأيتَ ربك؟ قال(ع): ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره. فقال: يا أمير المؤمنين: كيف رأيته؟ قال(ع): ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائقِ الإيمان"[1].

● المبحث الثالث:
الآثار العمليَّة لحضور الله في حياة المؤمن

ومن أهم الآثار العمليَّة لمسألة حضور الله في حياة الإنسان المؤمن، أنه سيقوم بإنجاز كل معاملاته وفعالياته الوجودية العمليَّة انطلاقاً من معيار "رضا الله"، وعدم معصيته، لأنه ،تعالى، يراه ويشاهده في كل دقائق حركته وعمله، وكذلك يراه الرسول الكريم(ص) والأئمة الأطهار(ع) من موقع الشهادة على تلك الأعمال، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[التوبة: ١٠٥].. وجاء عن الإمام جعفر الصادق(ع): "تُعرَض الأعمال على رسولِ الله (صلّى الله عليه وآله)

---

١ - الكليني، الكافي: ج ١، ص ١٣٨.

أعمالُ العباد كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله ،تعالى،]اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه، وسكت"[١]. وعندما سئل (عليه السلام) عن "المؤمنون" في الآية الكريمة قال (عليه السلام): "هم الأئمة".

هذا الإدراك الواعي لحقيقة أنَّ أعمال الإنسان مراقبة ومشاهَدة ومشهودة عنده عزَّ وجلَّ وعند ملائكته الذين يقومون بكتابة كل شيء يفعله، وكذلك عند الأئمة الطاهرين(ع)، عندها سوف يسعى لاجتناب السيِّئات والموبقات والتزام جانب الخير والأخلاق والسعي في سبل الأعمال الصالحة.. وأما إنْ لم يدرك المرء تلك الحقيقة وأحجم عن معرفة أن الله عزَّ وجلَّ معه دائماً، فإنه سيغرق في خطاياه وذنوبه وغفلته، وسيتهاون في التزاماته الدِّينيّة والحياتيّة المترتبة عليه كمسؤوليات تجاه نفسه وتجاه غيره، وقبل كل شيء تجاه خالقه، بما يدفعه للارتماء -شيئاً فشيئاً- في قاع المنكرات المحرّمات.

إنَّ وصول الإنسان إلى حقيقة أنَّ الله معه، سيدفعه إلى أداء كل أعماله وسكناته وحركاته بالاستناد إلى تلك المعرفة.. وهذه الأعمال التي تؤدّى وفق إرادة الله هي أعمالٌ مقرّبةٌ إلى الله، كالصلاة مثلاً التي هي "قربان كل تقي"[٢]، كما ورد عن الإمام الرضا(ع).

ولهذه القناعة الراسخة بالحضور الدائم لله ،تعالى، في حياة الإنسان،

---

١ - الكليني، الكافي، ج ١، ص ٢١٩.
٢ - الكليني، الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥.

أثران إيجابيان، أولهما: أنَّ الإنسان يؤدي واجباته ويقوم بأعماله بالاستناد إلى أوامر الله وأحكامه، وثانيهما: التزامه بجانب الإخلاص (المعنويّ والعمليّ) في كل ما يقوم به من أعمال الخير والبر والعطاء.

● المبحث الرابع: الشهادة والحضور الإلهيّ

لعلَّ أكثر وأفضل من يشعر ويلامس عملياً تلك الحالة المتقدمة للحضور الإلهيّ والمعاني السامية للقرب من الله ،تعالى، هو من يتوق إلى تحقيق فعل الشهادة في سبيله عزَّ وجلَّ.. لأنّ قلب طالب الشهادة خالٍ إلا من قيم الله، لم يرتبط بشيء في دنياه، يصبو للقاء الحي الدائم الذي لا يفنى.

والمجاهد في سبيل الله يصل -على طريق عشقه لله- إلى مرحلة من الشوق الكبير لا يرى الحياة الدنيا سوى سجن كبير يمنع الإنسان من التحليق في عالم الغيب اللامحدود ليصل إلى السعادة الكاملة بلقائه عزَّ وجلَّ.. إنها حالة متقدمة من انهيار الحجاب المادي عن وجه الروح والحياة السرمديَّة.

إنَّ الشهادة قمة العطاء في سبيل الله، والشهيد عندما يدرك حقيقة معناها، وأنه ،تعالى، محيط به، من كل حدب وصوب، وأنه أقرب إليه من

نفسه، لا يفكر سوى بمرضاته وبذل روحه في سبيله؛ ولا سيَّما مع إدراكه العميق لحقيقة الدنيا وما فيها وعليها، من حيث إنَّها دار الغرور، وأن الآخرة هي دار الحيوان أي الحياة الحقيقيَّة، ﴿**وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[العنكبوت: ٦٤]. ومع هذا الوعي العميق والإدراك الجَوَّانيّ الراسخ يصبح الموت أهم من الحياة، بل يغدو أمنيةً..

لذا كان الشهداء في مقامهم العالي عند الله، وليس عند أحد سواه، أحياء في كنفه بالحياة الحقيقيَّة، لهم رزقٌ لا حدّ له، وعطاءٌ غير مجذوذ، ﴿**وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُم**﴾[الحديد: ١٩] ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فى سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[آل عمران: ١٦٩].. فلا يوجد عندهم أي معنى أو أهمِّيَّة تذكر للخوف أو الحزن.. لأنّ الإنسان إنما يحزن ويغتمّ على المفقود والزائل، وهم إنّما تعلّقت قلوبهم بالحيّ الدائم القوي الجبار الذي لا يفنى ولا يزول ولا ينتهي، ولا حدود لقدرته وعظمته، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[آل عمران: ١٧٠]، لأنَّ الشهداء جسّدوا عملياً كل معاني الإخلاص والسمو والكمال والبذل والتضحية والصدق، فكان جزاؤهم: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيّينَ وَالصِّدّيقينَ**

وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾[النساء: ٦٩]. لذا كان العيد الحقيقيّ عند الإمام الخميني هو اليوم الذي يلاقي فيه ربه بعد الشهادة في سبيله: "إنَّ يوم فرحتنا وسعادتنا هو يوم نرتاح من هذه الدنيا الملوّثة والمليئة بالآلام والعذاب والبلاء. إنَّ عيدنا ويومنا السعيد هو الشهادة"[1].

- **المبحث الخامس:**

ما هي سبل حضور الله في حياتنا العمليَّة

يسعى الإنسان في حياته للوصول إلى مرحلة الكمال ومحاولة بلوغ درجة السعادة الحقيقيَّة التي يتقرب فيها من الله عزَّ وجلَّ، وهذا يكون من خلال المراقبة والمساءلة (المحاسبة) الدائمة.. وهذا الفعلان الذاتيَّان هما اللذان سيوصلان الإنسان إلى المكانة الرفيعة التي تجعله لا يرى فيها إلا الله ،تعالى،.. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**﴾[الحشر: ١٨]. وهذه دعوة إلى ضرورة ممارسة أصلين وفعلين أخلاقيين، الأول هو المراقبة، والثاني المحاسبة:

---

١ - صحيفة الإمام، ج ١، ص ١٩٦.

أولاً: مراقبة الذات والسلوك:

يشتق معنى كلمة المراقبة من "الرقبة"، فالذي يرفع رقبته ليشاهد أكثر يكون مراقباً. وينبغي على المرء أنْ يراقب كلّ شيء في حياته سواء أكان كلاماً أو فعلاً أو رؤية ونظراً أو غير ذلك، لكي يكون كل ما يفعله ويراه ويتحرك بموجبه يرضي الله، ولا يخالف أوامره، فالله ،تعالى،: ﴿**يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[غافر: ١٩]، ﴿**وما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[ق: ١٨]، وهو يكتب ويسجل كل شيء: ﴿**وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ**﴾[يس: ١٢]، ومن يراقب سلوكه وفعله وعلاقاته، ووإلخ، لن يخطئ لأنَّه سيكون حريصاً كل الحرص على عدم مخالفة تعاليم ربه، والالتزام برضاه ،تعالى،.. جاء عن الإمام علي(ع): "فرحم الله من راقب ربه، وخاف ذنبه، وجانب هواه، وعمل لآخرته، وأعرض عن زهرة الحياة الدنيا"[١]. ومما أوصى به الإمامُ الصادق(ع): «واقصدْ في مشيك؛ وراقب الله في كلّ خطوة، كأنكَ على الصّراط جَائز، ولا تُكنْ لفّاتا"[٢].

ثانياً: مساءلة النّفس ومحاسبتها

وهي أنْ يجلسَ المرءُ مع نفسه ليسألَ ويحاسبَ ويدقّقَ في أفعاله

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٦٧.

وسلوكيَّاته وعلاقاته، فيما إذا كانتْ تتحركُ كلها على طريقِ رضا الله، وعدم مخالفته.

وهذه المساءلةُ والمحاسبة تجعله على الدوام مُمسكاً بزمام نفسه من أنْ يقع في الحرام والمنكرات والمعاصي.. جاءَ عن رسول الله(ص) في بعض خطبه قال: "أيُّها الناس لا يشغلنّكم دنياكم عن آخرتكم، فلا تؤثّروا هواكم على طاعة ربكم، ولا تجعلوا أيمانكم ذريعة إلى معاصيكم، وحاسبوا أنفسكم قبل أنْ تُحاسبوا، ومهّدوا لها قبل أن تعذّبوا، وتزوّدوا للرحيل قبل أن تُزعَجوا، فإنّها موقِفُ عدل، واقتضاء حقّ، وسؤالٌ عن واجبٍ، وقد أبلغ في الإعذار من تقدّم بالإنذار"[١].

وعن الإمام علي(ع) قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، ووازنوها قبل أنْ توازنوا، حاسبوا أنفسكم بأعمالها، وطالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنائها لبقائها"[٢].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٨٣.

٢ - حسين النوري الطَّبَرْسيّ، مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث، ط٢، عام ١٩٨٨م، باب وجوب محاسبة النفس كل يوم...، ح ٥، ج١٢، ص١٥٤.

الفصل الثّالث

معرفةُ اللّه كسبيل للكمال البشريّ

● المبحث الأول:
التّربيةُ الإيمانيَّة كمدرسة للحُضور الإلهيّ

عندما نتحدثُ عن التربية وأساليبها ومدارسها المتعددة والمختلفة التي ظهرت في عالمنا، سنجد أن هناك فوارق جوهرية كبيرة وعميقة بين مدرسة الرسل والأنبياء(ص) والأئمة(ع)، وبين غيرها من مدارس الفلاسفة والمفكرين والمنظرين، فمدرسة الأنبياء والأئمة تركز في عملها ومنهجية تعاملها التربوي على العامل الرُّوحيّ والجانب المعنوي عند الناس، دونما نسيان للجانب النظريّ المجرد في حياة الإنسان..

وهذا الاهتمام والتركيز على الجانب الرُّوحيّ عند الإنسان من قبل الأنبياء والأئمة، يعود إلى سبب أساسيّ وهو أنه يصنع للإنسان هوية خاصة بالإنسان، لا يشاركه بها أي كائن أو مخلوق آخر.. ولهذا أيضاً نجد أن كتاب الله يشير دوماً -في سياق توصيفه لماهية العلاقة القائمة بين الله وبين المؤمنين بالرسالة الإسلاميَّة- إلى أسس هذه العلاقة، حيث يستعمل هذه الألفاظ الخاصَّة في دلالتها على جانب العاطفة والقلب والوجدان، وذلك من قبيل قوله، عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[البقرة: ٢٢٢]. ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ**

﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[الحجرات: ٧]. ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠].

إنّ تركيزَ الآيات الكريمة السابقة على قيم الرّوح والتّسامي النفسي ومقولات القلب، له دلالة واضحة على أنَّ هذه المدرسة الإلهيَّة تنشدُ تربية الإنسان على معاني الروح والوجدان والأخلاق والمحبة التي هي أساسُ كلّ تطور وتكامل بشري في الحياة.

إنَّ الإنسانَ يتحركُ على طريق المحبة لكي يصلَ إلى مرحل الكمال الذي لا يتحققُ إلَّا من خلال الاقتراب من الله ،تعالى، الذي هو الكمال المطلق والمثل الأعلى المرتفع..

● المبحث الثاني: المنهج التربويّ للأنبياء والرّسل

قد يرى البعضُ أنه لا حاجة بنا -مع وجود المنطق والاستدلال- للحديث عن الموعظة والتربية والتوجيه..!!. ولا يوجد أي داعٍ للتركيز على مواضيع العاطفة والوجدان.. لكن للأسف هذا النمط من التفكير ينظر للأمور من زاوية واحدة، ويتناسى زوايا عديدة أخرى في شخصية الإنسان الذي يحتاج

على طريق كماله الممكن له، إلى التربية الرُّوحيّة العاطفية مثلما يحتاج للتربية والتنمية العقليَّة العلمية.. ولو أننا عدنا لتحليل تاريخ الأنبياء، فإننا سنجد أن الناس عندما كانت تلتف حولهم وتتحرك في مسيرتهم، لم يكن للمنطق والاستدلال أي دور فذا الالتفاف، ولم يكن هو الدافع الرئيسي لإيمانهم والتفافهم.. فالمراحل الأولى لحركة النبوَّة كانت تستهدف كسب الناس وتقريبهم لساحة الإيمان من خلال المعنويات والمشاعر والعواطف الصادقة.. وهذا ما نلاحظه في فترة نبوة الرسول الكريم محمد(ص)، حيث إنَّه(ص) كان يخاطب المشركين والكفار من خلال إظهار ضعف آلهتهم وعجزها وفشلها، وأنَّها لا تعدو أنْ تكون أكثر من حجارة لا قيمة لها.. ولم يكن(ص) وقتها يتحدث عن أي دليل عقلي أو منطقيّ لإظهار بطلان عبادتهم لتلك الأوثان.. كما أنَّه لم يستدل بأية أدلة عقليَّة فلسفيَّة على وجود الخالق ووحدانيَّته.. بل كان يكتفي بالقول: "قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا»[1]، وهي عبارة معنويَّة روحيّة تلامس مشاعر الناس وأحاسيسها الصادقة بعيداً عن أية براهين فلسفيَّة أو عقليَّة. ومن المعروف أن حركة النبوات كانت تبدأ دعواتها من دون طرح براهين فلسفيَّة أو عقليَّة، بل بالتركيز على الجانب العاطفي الرُّوحيّ، لتحرك في الإنسان أحاسيسه وتخاطب عواطفه الصادقة والسليمة موجهة أنظاره إلى ما كانت تنطوي عليه المجتمعات

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٢.

من مظالم وانحرافات وغيرها، مما كان يمارسه الطغاة وغيرهم.. ومن ثم عندما تهدأ أوضاع المجتمع وتستقر أحوال الناس فيه، كانت تبدأ مراحل تقوية الإيمان وتركيزه بالأدلة والبراهين الفلسفيَّة والعقليَّة..

● المبحث الثالث: معرفةُ الله بين العقل والقلب

إنَّ المعرفة عند الإنسان لها مصادر ومنابع أساسيّة، تنطلق من فكرة تساؤليّة هي: ما الطريق لمعرفة الحياة وحقائق الوجود؟

في الإجابة نقول: إنَّ هناك ثلاثة منابع للمعرفة، هي:

منبع الحس، ومنبع العقل، ومنبع القلب.

وقد أولت مدرسة آل بيت النبوَّة اهتماماً بالغاً لمنبع القلب، طبعاً من دون التقليل من أهمِّيَّة منبعي الحس والعقل.

والمعنى الأساسيّ لمعرفة الله ،تعالى، قلبيّاً، هو أن يشعر الإنسان بالله في وجوده الذاتي الداخلي، في عمق باطنه.. وهذه الشعور والإحساس لا يتحقق إلا بالإيمان والتقوى والتفكر والتأمل..

وأما عن وجود فروقات بين المعرفة العقليَّة والمعرفة القلبيَّة، فيمكننا تثبيتها من خلال الآتي:

١ - إنّ معرفة الله، سبحانه، عن طريق القلب هي معرفة شهوديّة

وحضوريّة.. بمعنى أنها معرفة حضور المعلوم عند العالم مباشرة، وأما معرفته عن طريق منبع العقل فهي معرفة تحصيليّة وإدراكيّة للمعلوم عن طريق الأدوات الحسِّيَّة والصور الذهنيَّة. فالعالم يعرف الله ولكنّ العارف يرى الله.. كما ورد في الدعاء المروي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام): «...إلهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشّوق إليك في حدائق صدورهم وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبّة بكأس الملاطفة يكرعون،...»[1].

٢ - إنّ معرفة الله ،تعالى، بالقلب هي معرفة فرديَّة ذاتيَّة خاصة بالإنسان وحدَه، ولا يشاركه بها أحد، كما أنَّها لا تنقل للآخرين ولا تعلّم.. هي شكل من أشكال المجاهدة الخاصَّة.. أما معرفة الله بالعقل، فهي ليست تجربة خاصة في نطاق الفرد، بل هي معرفةٌ يمكن أن تكون قابلة للتعليم والتعلم واكتساب الخبرة.. ويمكنُ نقلها للآخرين. إنّ معرفةَ الله عن طريق القلب لا يمكن إبرازها في قالب الاستدلال والبرهان، وهي ليست أمراً كلامياً قولياً بل هي أمرٌ ذوقي، ونوعٌ من التجربة الذَّاتيَّة الباطنية لا يمكنُ نقلها للآخرين.

٣ - إنَّ المعرفة القلبيَّة تأتي من خلال الالتزام بالتقوى والالتزام والعمل، أما المعرفة العقليَّة فإنها قد تأتي وتكون مع التقوى، وقد لا تكون معها، بل

---

١ - الإمام زين العابدين(ع)، الصحيفة السجّادية، مناجاة العارفين،ص:.

يمكن أن تكون أحياناً مترافقة مع الكفر، كما يتضح ذلك من قوله ،تعالى،: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾[النمل/١٤].

وعليه فيمكن أن تأتي معرفة العقل بشكل تبرز معها حالة من التناقض، على أنَّ العقل قد يؤمن بوجود الله، ولكن في اللسان ينكره، وفي العمل يبتعد عنه.. أي أننا قد نجد أناساً يعرفون الله بالقلب ولكنهم ينكرونه بالأعمال.. على عكس المعرفة القلبيَّة التي لا يمكن أن تتحقق من دون أن يكون فيها التزام عملي.. وعن هذا الأمر تحدث إمامنا محمد الباقر(ع) قائلاً: «لا يُقبَل عمل إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف دَلَّتهُ معرفته على العمل، ومن لم يعرف فلا عمل له»[1].

● المبحث الرابع:
مساوئ فَصْل المعرفة العقليَّة عن المعرفة القلبيَّة وسلبياتُها

لا تستوي المعرفةُ عند الإنسان من دون تكامل العقل مع القلب.. ورغم ذلك لاحظنا في تاريخنا الإسلاميّ أنّ بعضَ العرفاء قد سلكوا طريق القلب وأفرطوا فيه إلى حد أنهم رفضوا البرهان واعتبروا أن لا دليل عليه، وذكروا بأن أرجل الاستدلاليّين خشبية:

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٧٤.

أرجل الاستدلاليّين خشبية والأرجل الخشبية ليست قوية

طبعاً هذا الإفراط في رفض الاستدلال العقليّ والبرهان الفلسفيّ والاكتفاء بنمط معرفي قلبيّ، هو أمر غير منطقيّ وغير صحيح.. لأنّ المعرفة العقليَّة إذا طرحت منفصلة عن المعرفة القلبيَّة، فهي ستؤدي حتماً إلى الابتعاد أكثر عن الله سبحانه.

إنَّ تكامل المعرفة بشكليها العقليّ والقلبيّ هو أساس الوصول للمعرفة الحقيقيَّة..

● المبحث الخامس: فطريَّة معرفة الله وتوحيده

الإيمان بوجود مدبر للكون والوجود فطرة في الإنسان، وسعي الإنسان لمعرفة هذا المدبّر (الله ،تعالى،) مركوز في جوَّانيَّته، وقد جبلت عليه سلسلة بني البشر بأكملها.. إنَّها الفطرة التي تنظر للآفاق البعيدة حيث الكمال الرُّوحيّ، وحيث اللقاء به ،تعالى، في مواقع عظمته.

إن البشريّة في كل أدوارها وحضاراتها كان البعد الفطريّ الدِّينيّ المتطلع للعشق الوجودي حاضراً عند كل أفرادها في توجههم وسعيهم للكمال الحقيقيّ.

هذا العشق للكمال هو عشق لما يمثله من قيم وصفات عظيمة يتطلع

الإنسان لتجسيدها في حياته وعلاقاته.. فيعشقون العلم الذي لا جهل فيه، والقدرة التي لا تعجز عن شيء، والحياة التي لا موت فيها. وهذا الكمال الحقيقيّ المطلق هو الله ،تعالى، الذي تتوجه وترنو إليه الأعين وتهفو القلوب والأرواح من خلال الفطرة التي لا شك فيها، ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾[إبراهيم:١٠].

ومثلما أنّ الفطرة الإنسانيَّة تنظر للكمال وتنجذب إليه، فإنها أيضاً تنفر من النقص والعيب.. وللتوضيح هنا، نؤكد أنَّ الكثرة لا تكون إلا بمحدوديّة، والمحدوديّة نقص، وكل ناقص مرغوب عنه من جانب الفطرة، وعليه فينتج من هاتين المقدمتين الفطريّتين وهما: «فطرة حب الكمال» و«فطرة النفور من النقص»، ينتج إثبات التوحيد؛ بل إنّ استجماع الله لجميع الكمالات براءة ذاته المقدَّسة من كل نقص، قد ثبت ذلك كله بالفطرة.

قال الإمام الصادق(ع) في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطرَ الناس عليها ذلك الدين القيم...**﴾[الروم:٣٠]: «فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته»[١]. وفي تفسير البرهان ذكر في ذيل الآية المذكورة خمس عشرة رواية فسرت جميعها الفطرة في هذه الآية بمعنى فطرة معرفة الله والتوحيد[٢].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٢٧٨.
٢ - هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج٤، ص٢٦١.

وسئل الإمام الصادق(ع) عن الله، عزَّ وجلَّ، فقال(ع): «يا عبد الله، هل ركبت سفينةً قط؟، قال: بلى، قال: فهل كُسِرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى، قال(ع): فهل تعلق قلبك هناك أن شيئا من الأشياءِ قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: بلى، قال الصادق(ع): فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا مُنجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث»[1]. ونلاحظ أيضاً أنَّ القرآن الكريم تحدث عن هذه الصورة، وذلك في قوله، جلّ وعلا: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾[يونس:٢٢].

إنَّ ما يمنع الإنسان من الوصول إلى الشعور بوجود الله والإحساس بحقيقة الفطرة التي جبل الناس عليها، هو هيمنة القوى الشهويَّة والغضبيَّة واتباع الأهواء وتدخلات إبليس وسيطرة الأنا، أي الاستغراق في عوالم المادَّة والملذَّات.. فهذا ما يقف حائلاً أمام الإحساس العميق بالفطرة، وتلمّس نتائجها الطيبة على مستوى الإيمان والإشراقات الرُّوحيّة، والشعور بالله ،تعالى، في وجوده وعظمته.. وهو شعور كامن في داخل الإنسان، في نبضه وسكونه.. نعم، لا تراه الأعين والأبصار المادِّيَّة، ولكن تدركه

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٤١.

البصائر القلبيَّة والرُّوحيّة.. هي ليست رؤية العين والمشاهدة العيانيَّة، ولكن رؤية الوجدان الذي يوحي إليك أنّ الله في داخلك، ورؤية القلب الذي يأخذك بكلك إلى الله، سبحانه، حيثُ الجَمال والخير والعطاء والتّسامح والتطهر والإحساس الكبير الممتلئ بالمسؤوليَّةَّ والحكمة والشعور بالآخرين والترفع عن الأحقاد والموبقات والنظر للناس بعين المودة والرحمة ،إلخ.. هذا كله يعني أنَّه ،تعالى، هو الذي يقف معك في المُلِمَّات كلِّها، يحميك، يحيطك برعايته، يوجهك ويرشدك..

وعندما توشك أنْ تقع، تشعر بأن ثمة يداً خفية توقف سقوط، وتسندك في وجودك.. إنّها لا شك يد الله عزَّ وجلَّ.

الفصل الرّابع

المعرفة هي سبيل الانقطاع إلى اللّه

● المبحث الأول:
درجات المعرفة ومراتبها

معرفة الله قلبيّاً وعقليّاً درجات ومستويات، ولكل درجة ومستوى معرفي يتدرج فيه الإنسان نحو الله، شروط للتحقق تختلف عن غيرها من الدرجات والمستويات الأخرى، ولا يمكن قياس درجة بأخرى..

تبدأ المرتبةُ الأولى أو المرحلة الأولى من مراتب المعرفة العقليَّة ومراحلها من المعرفة البديهيَّة، وتتواصلُ من خلال درجات ومستويات حتى تنتهي بالبراهين والأدلة الفلسفيَّة وغيرها.. وتبدأ أولُ مرتبة من مراتب المعرفة القلبيَّة من المعرفة الفطريَّة، وتنتهي عند العارف بتجاوز الحجب الظلمانية والنورانية والوصول إلى مرتبة تجلّي الذات وحضور الله ،تعالى، في فكره وسلوكه وعلاقاته.

● المبحث الثاني:
شروط معرفة الله

تنقسم المعارف العقليَّة إلى نوعين:

١ - **المعارفُ العقليَّة البديهيَّة:** وتعني أنّ معرفة الله ليست مشروطة

سوى برفع الموانع الذَّاتيَّة القائمة على التعصب والشخصنة والتحزّب الضيق والكره والبغض.. فهذه كلها تمنع العقل عن فطرته الأساسيّة البديهيَّة؛ وفي حال بقيتْ تلكَ الموانع والمعيقات، فيصبحُ من الطبيعي توجّه العقل للبراهين والاستدلالات العقليَّة والفلسفيَّة..

٢ - المعارف العقليَّة النظريّالنظريّة:

إنّ لها شروطاً أخرى غير رفع المعيقات والموانع، وهي طلب العلم والمعرفة بالبراهين العقليَّة والفلسفيَّة.. ولكن يجب رفع معيقات المعرفة وموانعها، وهي نفس موانع المعرفة العقليَّة البديهيَّة التي لولا وجودها لأدرك العقل خالقه وربه بنفسه ولأحس القلب به أيضاً. كما يقول الإمام علي(ع) في وصفه لسالك الطريق إلى الله: «قد أحيا عقله وأمات نفسه حتّى دَقَّ جليله ولطف غَليظه وبَرَقَ له لامع كثير البرق فأبان له الطّريق وسلك به السّبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السّلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والرّاحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[1].

● المبحث الثالث:
مراتب الإيمان ودرجاته

أصل المعرفة أنْ يعرف الإنسان وجوده، وأساس هذا الوجود معرفته

١ - شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبده، خطبة ٢٢٠.

بالخالق.. هذه المعرفة التي يعقبها الإيمان تحصل في النفس من خلال التصديق المنطقيّ والاستدلاليّ إلى جانب الإدراك والإحساس الفطريّ القلبيّ، وهو أمر يأتي عن طريق الأنبياء والرسل والأئمة، وجوهر تجسيده وشرط تحقّقه هو عدم وجود الموانع ولو بنحو نسبيّ بسيط.

وإذا ما أراد الإنسان أنْ يعلوَ درجة أخرى من درجات المعرفة والإيمان ليصل إلى مرتبة اليقين، فما عليه سوى أن يلتزم بتطبيق الأحكام والقوانين الإلهيَّة، ويسعى بإخلاص كبير في سبيلها.. جاء عن الإمام علي(ع): «إنّ الإيمان يبدو لُمظةً في القلب، كلّما ازداد الإيمان ازدادت اللُمظةُ»[1].

إنّ التقوى سبيل أساسيّ من سبل السير والسلوك اليقيني، ومعها يزداد نور الإيمان تدريجياً حتى تصل مرآة القلب إلى درجة من الإشراق والنور. وعلى هذا فيكون حينئذٍ للإيمان ثلاث مراتب محدودة، المرتبة الأولى هي عبارة عن التصديق المنطقيّ، الثانية مرتبة التقوى، الثالثة مرتبة اليقين.. يقول الإمام الرضا(ع): «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتَقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التّقوى بدرجة، وما قُسِمَ في النّاس شيء أقلّ من اليقين»[2]. وحتى نتبين مراتب الإيمان ودرجات من التصديق المنطقيّ حتى الرؤية القلبيَّة أو من علم اليقين إلى عين اليقين، يجب بحث ودراسة عدة قضايا مُهمَّة على هذا الصعيد:

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٩٦.
٢ - الكليني، الكافي، ج٢، ص٥١.

١. مدى إمكانية تحقق الرؤية القلبيَّة.
٢. معنى الرؤية القلبيَّة.
٣. معايير الحركة التكامليّة.

● المبحث الرابع: مدى إمكانية الرؤية بالقلب

تتحقق الرؤية بالقلب والبصيرة.. وقد صرّح الإمام علي(ع) أنه لا يعبد رباً لم يره. جاء في رواية معروفة أنّ شخصاً اسمه ذعلب ذا لسان بليغ في الخطب، شجاع القلب سأل أمير المؤمنين الإمام علي(ع)، فقال: «يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك؟ قال: ويلك يا ذِعْلِبُ ما كنت أعبد ربّاً لم أره، فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟ قال: ويلك يا ذِعْلِبُ لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[1].

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر محمد بن علي الباقر(ع)، وقد دخل عليه رجلٌ من الخوارج فقال له: «يا أبا جعفر أيّ شيء تعبد؟ قال: اللَّهَ ،تعالى،، قال رأيته؟ قال: بل لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يُعرف

---

١ - الكليني، الكافي، ج١، ص١٣٨.

بالقياس ولا يدرك بالحواسّ ولا يُشَبّه بالناس موصوف بالآيات معروف بالعلامات لا يجور في حكمه ذلك الله لا إله إلا هو قال فخرج الرّجل وهو يقول الله أعلم حيث يجعل رسالته»[١].

ويقول أبو بصير: سألت الإمام أبا عبد الله الصادق(ع): «قلت له: أخبرني عن الله، عزَّ وجلَّ، هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) ثمّ سكت ساعة، ثم قال: وإنّ المؤمنين لَيَرَونه في الدّنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقت هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له جُعلت فداك فأُحَدِّث بهذا عنك؟ فقال: لا فإنّك إذا حدّثت به فأَنْكَرَهُ مُنْكِرٌ، جَاهِلٌ بِمَعْنَى ما تقوله، ثمّ قَدَّرَ أنّ ذلك تشبيهٌ وكفر، وليست الرّؤية بالقلب كالرؤية بالعين ،تعالى، الله عمّا يصفه المُشَبِّهُون والملحدون»[٢].

وعن الإمام الرّضا(ع): «قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لمّا أُسْرِيَ بي إلى السّماء بلغ بي جبرئيل مكانًا لم يطأه قطّ جبرئيل فكشف له فأَراه الله من نور عظمته ما أحبّ»[٣].

ويقول الإمام علي(ع) في الدعاء:

«فأسألك باسمك الّذي ظَهرْتَ به لخاصّة أوليائك فوحَّدوك وعرفوك

---

١ - الكليني، الكافي، ج١، ص٩٧.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٤، ص٤٤.
٣ - الكليني، الكافي، ج١، ص٩٨.

فعبدوك بحقيقتك أن تُعرِّفني نفسك لأُقِرَ لك بربوبيّتك على حقيقة الإيمان بك ولا تجعلني يا إلهي ممّن يعبد الاسم دون المعنى والْحظْني بلحظة من لحظاتك تنوَّر بها قلبيّ بمعرفتك خاصّة ومعرفة أوليائك إنّك على كلّ شيء قدير»[١].

ويقول الإمام الحسين(ع) في دعاء عرفة: «أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك»[٢].

● المبحث الخامس:
السير التكامليّ من واقع الإيمان إلى أفق اليقين

يتحدث أهل العصمة والطهارة الذين بلغوا مستوى ودرجة: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[٣]. عن السير والسلوك للوصول إلى مرتبة اليقين، حيث يؤكدون أنّ هذا السير التكامليّ يبدأ بالذكر ويُختتم بالانقطاع. ولبيان الموضوع يمكن الإشارة إلى ما يأتي:

أولاً: الارتباط بين الإيمان والذكر:

يراد من مصطلح «الذّكر» عمل الإنسان بكل لوازم الإيمان ومقتضياته..

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩١، ص٩٦.
٢ - محمد باقر المجلسي، ج٩٥، ص٢٢٦.
٣ - محمد باقر المجلسي، ج٤٠، ص١٥٣.

فعندما تؤمن بالله ،تعالى، كخالق لكل شيء، عليك من باب الإلزام الأخلاقيّ والإيمانيّ والعبوديّ، أن تعمل بإرادته وكل قوانينه وبرامج الإيمان به ،تعالى،، وهي برامج وإلزامات وضوابط أوحى بها ،تعالى، للأنبياء والمرسلين وتهدف لبناء الحياة على أسس التكامل الرُّوحيّ والمادِّيّ..

نعم، إنَّ جوهر موضوع «ذكر الله» هو العمل بالقوانين الإلهيَّة، وذكر الله باللسان هو جزء صغير من الذكر بالمفهوم العام.. يقول الإمام الصادق(ع) يقول فيه: «الإيمان عمل كله، والقول بعضُ ذلك العمل بفرض من الله»[١].

من هنا، وبناء على ما تقدم، لا انفصال بين الإيمان والذكر، ولا بقاء لأحدهما من دون الآخر.. وإذا ما حدث الانفصال، فسوف ينطفئ المصباح، وينهدم البنيان.. ولهذا يؤكد الإمام علي(ع): «ذكر الله دعامة الإيمان»[٢]، أيْ أنّ الذكر أمر ضروريّ لبقاء بناء الإيمان مَشيْداً قوياً.

ويقول(ع) أيضاً: «ذكر الله رأس مال كل مؤمن وربحه السلامة من الشيطان»[٣].

---

١ - الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٣.
٢ - غرر الحكم للآمدي، غرر الحكم، ص١٨٨.
٣ - غرر الحكم للآمدي، غرر الحكم، ص١٨٨.

ثانيًا: الارتباط بين الذكر والحبّ:

إن الذكر بما ذكرناه سابقاً هو جذر وقاعدة كل ما يتعلق بحياة القلب والروح، لهذا يقول الإمام علي(ع): «من ذكر الله،، سبحانه أحيا الله قلبه ونوّر عقله ولُبَّه»[١]. ودوام غذاء الذكر ضروريّ لاستمرار حياة الروح: «مداومة الذكر قوت الأرواح»[٢]. وعندما يحيا القلب يستأنس بالله تدريجياً: «الذكر مفتاح الأنس»[٣]. «من أكثر ذكر الله أحبَّه»[٤].

ثالثًا: ا لارتباط بين الحبّ والعصمة:

إنّ العصمة هي إحدى أهم نتائج الحبّ وثماره وتجلياته العمليَّة.. وهي تحدث عندما يتطور الحب ويصل إلى مستوى أعلى مرحلة فيه، حيث إن المحبة تمنع الإنسان أن يتصرف على خلاف مراد المحبوب وغايته.. أي يمنعه الحب من ارتكاب أيَّة معصية أو مخالفة تغضب الله، عزَّ وجلَّ.. ولهذا جاء في المناجاة الشعبانيّة: «إلهي! لم يكن لي حوْل فأنتقلَ به عن معصيتك إلا في وقتٍ أيقظتني لمحبتك».

---

١ - غرر الحكم للآمدي، غرر الحكم، ص١٨٩.

٢ - غرر الحكم للآمدي، غرر الحكم، ص١٨٩.

٣ - غرر الحكم للآمدي، غرر الحكم، ص١٨٩.

٤ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث في قم، مطبعة مهر، إيران/قم، طبعة٢، عام ١٤١٤هـ، باب استحباب كثرة ذكر الله...، ح ١. ج ٧، ص ١٥٤.

وهذا الحب إذا ما تعمّقَ أكثر فهو يطهرُ النفس، ويصونُ المرء حتى من الشبهة.. يقول النبيّ الأكرم(ص): «قالَ اللهُ، سبحانه، إذا علمت أنَّ الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كانَ عبدي كذلكَ فأرادَ أن يسهو حُلْتُ بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقّاً، أولئك الأبطال حقّاً، أولئك الذين إذا أَرَدْتُ أن أُهلِكَ أهل الأرض عقوبَةً زَوَيتُهَا عنهم من أجل أولئك الأبطال»[1].

رابعًا: الارتباطُ بين الحبّ والانقطاع:

أما الأثرُ الثاني للحبّ، فهو يتمثلُ في أنه يستقطبُ العاشق ويجذبه نحو المعشوق، بحيثُ تنقطع كل أشكال الارتباطات ومن أيّ نوع كانت، مع أيّ شخص وأيّ شيء آخر، وهذا هو معنى الانقطاع الكامل للمعشوق الذي هو الله، تعالى،.. جاءَ في مناجاة المحبّين المرويَّة عن الإمام زين العابدين في الصّحيفة السّجّادية: «إلهي! من ذا الذي ذاقَ حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً».

إنّ التدقيق في القضايا والمسائل الواردة في باب العبادة التي ارتسمت في برامج الأنبياء(ع)، يمكنُ أن نجدها ممنهجة ومنظمة بحيث إنَّه إذا ما تم إنجازها على نحو حقيقي صحيح، فإنّ الإنسان سيصل حتماً بعد فترة

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩، ص١٦٢.

-وبصورة طبيعية- إلى حالة الانقطاع وقطع الاتصال والارتباط بكل ما سوى الله، وعندها ستموت كل الأهواء والأمزجة في القلب، وتتحقق في الإنسان هذه الخصوصيَّة التي تحدّث عنها الصادق(ع) في صفات المؤمن وهي «ميّتة شهوته»[١]. حينئذ يكونُ نظر العين لله لا للهوى، وسمع الأذن لله لا للهوى، واليد والرجل تتحرّكان له، عزَّ وجلَّ لا للهوى، وتصير إرادة الإنسان في نهاية الأمر مسلّمة لإرادة الحق، وبتعبير أدق وأعمق تصير إرادة الإنسان إرادة الله ويصل الإنسان إلى مقام الفناء في الله، وهو معنى الحديث القدسي: «ما تقرَب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرَب إليّ بالنّافلة حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته»[٢].

خامسًا: العلاقةُ بين الانقطاع واللقاء:

وردت كثير من الروايات عن أهل البيت(ع)، تتحدث عن أن الإنسان لا يمكنه الوصول لمرحلة الكمال والرؤية القلبيَّة واللقاء مع الله، عزَّ وجلَّ، ما لم يحصل عنده الانقطاع إليه ،تعالى،.

جاء عن سيد العارفين الإمام علي(ع): «لن تتصل بالخالق حتى تنقطع

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢،ص ٢٣٠.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٥٢.

عن الخلق»[١]. ويقول (عليه السلام) أيضاً: «الوصلة بالله في الانقطاع عن الناس»[٢].

وجاء في المناجاة الشعبانيَّة بدلالات عرفانيَّة عميقة: «إلهي! هبْ لي كمالَ الانقطاعِ إليك، وأَنِرْ أبصارَ قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّى تخرقَ أبصارُ القلوبِ حجبَ النور فتصلَ إلى معدنِ العظمة».

من هنا يمكننا القول:إنَّأول مرتبة أو درجةَ على سلم الكمال هو الذِّكْر، وآخرها الانقطاع، ومن ثم يكون اللقاء والرؤية الحقَّانيَّة القلبيَّة في نقطة أوج الانقطاع. ويمكننا معرفة هذا السبيل أو السير التكامليّ حتى مرحلة الانقطاع الكامل في أعلى درجاته الرُّوحيّة العرْفانيَّة من خلال الروايات التي وردت عن الرسول(ص)، يقول(ض): « قال الله سبحانه إذا علمت أنّ الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حُلْتُ بينه وبين أن يسهو. أولئك أوليائي حقاً أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»[٣].

ويقول الإمام الصادق(ع) في خصائص «أولي الألباب» والعقلاء، بعد أن يبيّن أنَّ العقلاء هم الذين وصلوا إلى الله عن طريق الفكر والحب: «إنّ

---

١ - الآمدي، غرر الحكم، ص٢٠٠.
٢ - غرر الحكم للآمدي، مصدر نفسه، ص١٩٩.
٣ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٠، ص١٦٢.

أولي الألباب الّذين عملوا بالفكرة حتّى وَرِثُوا منه حُبَّ الله فإنّ حُبَّ الله إذا وَرِثَهُ القلب واستضاء به أَسْرَعَ إليه اللُّطف فإذا نزل [مَنْزِلَةَ] اللّطف صارَ من أهل الفوائد فإذا صار من أهل الفوائد تَكَلَّمَ بالحكمة فصار صاحب فِطنَة، فإذا نزل منزلة الفطنة عمل في القدرة، فإذا عمل في القدرة عرف الأَطباق السّبعة، فإذا بلغ هذه المنزلة صارَ يتقلّبُ في فكره بلطف وحكمة وبيان، فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبّته في خالقه فإذا فعلَ ذلك نزلَ المنزلة الكبرى فعاين ربّه في قلبه وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء وورث العلم بغير ما ورثه العلماء وورث الصّدق بغير ما ورثه الصّدِّيقون»[١].

وبناءً عليه يختصرُ الإمام زين العابدين(ع) مطالبه الكثيرة من الله -في مجال تزيين الروح بالصفات الحسنة- ببضعة كلمات وهي: «ونبّهني لذكرك في أوقات الغفلة، واستعملني بطاعتك في أيام المهلة، وانهجْ لي إلى محبتك سبيلاً سهلة أكمل لي بها خير الدنيا والآخرة...»[٢].

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٦، ص٤٠٤.
٢ - الإمام زين العابدين(ع)، الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

الفصل الخَامس

التّوحيد عقيدةً ومعرفةً

● المبحث أولاً:
الغايةُ من وراءِ الدعوة لعقيدة التوحيد

من الواضح في السّياق الحياتيّ العملي أنَّ سلوكَ الإنسان على أرض الواقع، يعكسُ فكرَه وإيمانه بفكرة أو مبدأ أو رؤية عقائدية مفاهيميّة يحملها في نفسه ويختزنها في عقله، فتفرض هيمنتها وتأثيرها -السّلبي أم الإيجابيّ- على مجمل حياته وعلاقاته، في طبيعة شخصّيته وتفكيره وكلِّ ما يتعلق بمستويات حياته الخاصَّة والعامَّة حتى على المستوى العبادي والسياسي.

ويأتي التوحيدُ على رأس تلك المعالم والمبادئ العَقَديَّة التي تنطلق من الإيمان بالله ،تعالى،، وهو يعني مطلق الخضوع لله عزَّ وجلَّ، ونفي الخضوع لغيره، فلا يجد أيَّ قيمة لأيِّ شيء لا يتحرك من موقع الإيمان بالله ،تعالى،.. لتكون ترجمة هذه الرؤية العَقَدِيَّة التوحيديَّة ممارسة عملية في كل مواقع الحياة.. وتتمحور الغاية من عقدية التوحيد في إصلاح الإنسان ومن ثَمَّ إصلاح المجتمع، من خلال بناء هذا الإنسان على أسس الوعي والمسؤوليَّةَّ والحكمة.. وعندما ينصلح الإنسان تنصلح المؤسسات المجتمعيَّة وتنصلح الدولة التي تقود تلك المجتمع.. فالإنسان أساس وجوهر أيِّ إصلاح حياتيٍّ..

إنَّ التوحيد يعزز في الإنسان معنى الوجود وهدفيَّته، مما يدفعه للتسامي باتجاه كل ما يرضيه ،تعالى، وصولاً إلى تحقق كماله المنشود له..

● المبحث الثاني: في معنى التوحيدين (النظريّ والعملي)

يمرُّ «التوحيد الإلهيُّ» بمستويين ومرحلتين، كل واحدة منهما تكمل الأخرى.. ولا تتم الأولى إلا بالثانية:

التّوحيد النظريّ:

وهو يعني الإيمان بوحدانية الله ،تعالى،، بكل صفاته الجلاليَّة والجمالية.. وحتى نعي تماماً هذا المعنى دون التباس وغموض وانحراف، يجب أن نميز بين معنيين ومفهومين للتوحيد النظريّ.. الأول هو معنى وفهم محرف، والثاني هو مفهوم صحيح وسليم.

-المفهومُ المحرَّف للتوحيد، يعني أنَّ صاحبه يعتقدُ بوجود الله ولكن دون تأثير في حركة الوجود، أي أنه منعزل عن الحياة والكون، فمهمته انتهت عند هذا الحد..!!. بطبيعة الحال يؤمن أصحاب هذا الاعتقاد بأنه يجب تقديس الخالق واحترامه وتقديره على إحسانه وفيضه الألي..

إن هذا النمط من الإيمان أو التوحيد النظريّ، هو تفكير وإيمان منحرف بعيد عن معنى الخالق الحقيقيّ.. وعن هؤلاء وأمثالهم يقول

القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾[المائدة: ٦٤].

-المفهومُ السليم للتوحيد النظريّ: وهو يقوم على أن الله عزَّ وجلَّ هو خالق الحياة.. المهيمن على كل شيء في هذا الوجود المترامي الأطراف، وهو العلة المطلقة للكون والحياة، يفيض وجوده على كل شيء.. ولا يمكن أن يكون منعزلاً عن خلْقه، فإشراقاته حاضرة وآثاره واضحة.. فهو الله سبحانه المهيمن بولايته الكلية المطلقة والشاملة العامَّة على عرش الوجود وعالم التكوين ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: ٤٤]. إنه العدل المطلق والإنصاف الكامل في كل مراحل التوين والوجود.. يقول ،تعالى،: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨].

والمتابع لآيات الله في كتابه الكريم يجد أن القرآن اهتم بشكل بالغ في إبراز العناية بهذا المفهوم الصحيح والسليم لمعنى التوحيد على مستوى الوضوح وإزاحة الشكوك والشبهات عنها.. ومن تلك الآيات:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الرعد: ١٦].

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].

التوحيد العملي:

أن توحد الله ،تعالى، عملياً يعني أن يكون الإنسان خاضعاً وعابداً لله في كل أفعاله وسلوكياته الخاصَّة والعامَّة.. والتوحيد العملي هو نتيجة للتوحيد النظريّ والإيمان القلبيّ الذي يتحول للتوحيد العملي في التصرفات والعلاقات والأعمال.. وهو توحيد في الطاعات والأحكام والأوامر الإلهيَّة كلها في كل ما يتعلق بقضايا العبد ومختلف شؤونه ومستويات حياته الفرديَّة أم المجتمعيَّة في السياسة والاقتصاد والاجتماع البشريّ.. وهذا يقتضي من الموحِّد (العبد) أن يعتقد بأن الله ،تعالى، هو المؤثر الوحيد في كل حركة الوجود، والأمور كلها بيده، وله الخلق والأمر، وكل ما في الأرض والسماء.. يفعل ما يشاء وما يريد.. وتبعاً لهذا ينبغي على هذا العبد أن يوجه مسارات حياته كلها وفقاً لهذه الإرادة الربانية بعيداً عن الأهواء والكيفيات الذَّاتيَّة الخاصَّة، فإرادته ،تعالى، وأمره فوق كل اعتبار وأمر وإرادة أخرى.

يقول عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[الحج: ٧٧ - ٧٨].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ* قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٦١ - ١٦٤].

إن الوصول إلى هذه الدرجة من الإسلام في معرفة الله وتوحيده عملياً، يتحقق فقط بالطاعة المطلقة والخضوع الكامل لله وحكمته وقيمه التي تجري على أيدي عباده المخلصين الصلحاء..

● المبحث الثالث:
لا استثناء في الإيمان العقيدي التوحيدي

النظرة التوحيديَّة شاملة لكل الكون والوجود والحياة.. والإنسان خاضع لهذه المعادلة التوحيديَّة، لأنه جزء من مجمل هذه المنظومة الكونيَّة التي يعود القرار والحاكمية فيها لله عزَّ وجلَّ، وليس لأحد ولاية سواه ،تعالى،.. لهذا يكون توحيد الولاية والطاعة لله هو أساس التوحيد العملي..

وهذا القانون الإلهي الحاكم هو الذي يعطي الإنسان مسببات البقاء والاستمرارية، لأن هذا الإنسان أصبح بموجب ذلك تابعاً للسلطة الحاكمية الإلهيَّة، يقول ،تعالى،: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[سورة الزمر: ٦٢]. والعقل نفسه يعي تماماً -انسجاماً مع قانون التكوين الإلهي- ضرورة التقيد بالتوجيه الإلهي... كما أن هذا العقل يعي ويدرك أن مصلحته تكمن فقط في نهج واتباع التخطيط الإلهي الذي رسمته الشرائع السماوية لسد ثغرات العقل نفسه، العاجز تماماً أمام تقدير حقيقة الوجود، وتقديم الصورة الصالحة للحياة، يقول ،تعالى،: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾[سورة يوسف:٤٠].. والحكم هنا تكويني وتشريعي محصور بيده، تعالى..

● المبحث الرابع: التوحيد ونظام الولاية

قد يسألُ سائل: كيف يتحركُ التوحيد العملي في حياة الإنسان في ظل الولاية المطلقة له ،تعالى، على كل شيء في هذا الوجود؟! وبناءً عليه، كيف يمكن صياغة حياة هذا الإنسان ومختلف شؤونه الخاصَّة والعامَّة؟!..

في الواقع، إنَّ السبيل الأساسيّ الوحيد للوصول إلى تحقّق التوحيد

العملي في أثره وتأثيره في حياة الإنسان والبشريّة، يكمن في امتداد الرسالة الإلهيَّة من خلال الرسل والأنبياء(ص) والأئمة المعصومين(ع)، قدوة البشريّة ورموزها الذين يتمثلون طاعة الله بأعلى تجليَّاتها وتمثّلاتها العمليَّة..

إنَّ هذه المالكيَّة المطلقة له ،تعالى، كأصل جوهريٍّ وجوديٍّ، هي واقعيَّة راسخة مسلّمة لا مجال لحدوث أي تغيير في معادلاتها الحياتيّة الكونيَّة.. وهي وُضعت في ذات الفرد وفطرته وعجنت معه، ودور كلِّ فرد بشريٍّ يكمن في أن يسعى طالباً للحق في أنْ يرفع عنه ،تعالى، معيقات شهود هذه الحقيقة عن عين بصيرته الذَّاتيَّة، وأن ينظر في مكنون فطرته.

وهذه القضيَّة تتحرك في عمق وأصل جوهر التوحيد، وإذا ما حلّلنا معنى الجملة الطيبة والرائعة: "لا إله إلا الله" فإننا نجدها تنحل إلى مسألتين كل واحدة مستقلة عن الأخرى، الأولى: النفي، (نفي الطاغوتيَّة)، والثانية: إثباتيَّة (إثبات الحق).. بما يعني أنَّ أمام الإنسان سبيلين لا ثالث لهما، سبيل الإيمان به ،تعالى، أو سبيل الإيمان بالطاغوت الذي هو كلُّ ما عداه ،تعالى،، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[سورة البقرة: ٢٥٦].

وانطلاقاً مما تقدم في توضيح معنى التوحيد وأساسه يمكن القول بأن طاعة العبد وخضوعه وانقياده ينبغي ألَّا يكون إلَّا لله ،تعالى،، وأي

طاعة أخرى لغيره هي حتماً للطاغوت إلاَّ إذا كانت بإذنه ،تعالى، كطاعة الوالدين أو القادة أو الأولياء.. جاء عن إمامنا جعفر الصادق(ع) في قول الله ،تعالى،: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، قال(ع): شرك طاعة وليس شرك عبادة»[١].. وروى ابن بابويه القُمِّي بإسناده عن الصادق(ع): «إيّاك والرئاسة فما طلبها أحد إلاّ هلك فقلت قد هلكنا إذاً ليس أحد منا إلا وهو يحبّ أن يُذكَر ويُقصَد ويُؤخَذ عنه فقال ليس حيث تذهب إنما ذلك أن تَنْصِبَ رجلاً دون الحُجَّةِ فَتُصَدِّقَهُ في كلّ ما قال وتدعو الناس إلى قوله»[٢].. وعنه(ع): «إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله ما خفقت النعالُ خلفَ الرجل إلا هلكَ وأهلك»[٣].. والسببُ وراء ما يفيدنا به الحديث أنَّ الإنسان المهووس بالرئاسة والملك غالباً ما تنتهي الأمور به وبمجتمعه أن يصبح طاغية متجبراً لا يأبه سوى بمصالحه وشهواته وثرواته.. فلا يهمه دين ولا أخلاق ولا شرع إلهيّ.. ولا حتى ضمير بشريّ.. هذا السقوط في وديان القوى الشهويَّة والغضبيَّة سيؤدي حتماً إلى المهالك الفرديَّة والمجتمعيَّة.. ولهذا يجب أن ندرك جوهر معنى التوحيد وإشراقاته المفترض ترجمتها في تصرفات الإنسان، من خلال ضرورة تعلُّقه وارتباطه الحميم بقاعدة

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٩٧.
٢ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٢٩.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٩٧.

نظام الولاية في الحياة، وفهم ما يمكن أن يسببه الخضوع لغيره ،تعالى، من إشكاليَّات ومآزق وتعقيدات حياتيَّة شخصيَّة وعامَّة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**﴾[الأحزاب: ٦٧]. ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا**﴾[الكهف: ٥٠].

الفصل السادس

موانع معرفة اللّه
الظلم والكفر والتكبُّر

مقدمة

إنَّ وصول الإنسان إلى معرفة كثير من خفايا الوجود والغازه مرهون باعتقاده وإيمانه بالله ،تعالى، خالق الكون والحياة.. ولا مناص أمام العقل من هذه السبيل.. فكل ما في الكون من علائم ومظاهر وآيات تدل دلالة صريحة وبالغة الحقيقة على وجود مدبر للكون وخالق للوجود.. والإنسان فطر على هذه المعرفة في بحثه عن الله ،تعالى،، وتوحيده وعبادته وشكره.. وأنّ لمعرفة الله جذوراً في قلبه وروحه وفطرته.

● المبحث الأول: الأسس الفلسفيَّة للإنكار

ورغم أنَّ الإيمان فطرة فإننا نجد في عالم البشر الكثير من غير المؤمنين بل والملحدين الناكرين لأصل الخلق، فما هو السبب؟ وما دوافع الإنكار رغم نداءات الفطرة والعقل والوجدان؟

في الواقع أية معرفة لها شروط ومُناخات وآليات عمل.. والمعرفة العقليَّة والعقليَّة ليس بمنأى من تلك الشروط والمؤثرات سواء كانت مانعة أم جاذبة.. وحتى تتحقق هذه المعرفة المتعلقة بالله ،تعالى، والإيمان به

يجب إزالة معيقاتها ومراعاة شرائطها.. ولكن ما هو ملوحظ في حركة التاريخ أنَّ هؤلاء المنكرين والملحدين كانوا مبتلَين بهذه الموانع.. وهم مثل ذاك المريض الذي لا يحس بجوعه خلال فترة مرضه، بسبب أنَّ المرض يقف حائلاً أمام الجوع.. فهؤلاء المنكرون والملحدون لديهم حس معرفة الله ،تعالى،، ولكن ما يمنعهم من المضي قدماً لمعرفته حقيقة بالفعل والبصيرة والإيمان، هو سببٌ نفسيٌّ قبل أيِّ شيء آخر، وهو ما يمنعهم من الإحساس الفعلي بحقيقة الإيمان بالله.. إنَّه في واقع الأمر مرض القلب والحجاب النفسي للقلب، وهما يقفان بقوة حجرة عَثْرة أمام تحقُّق فعليَّة الإيمان والمعرفة الإيمانيَّة..

● المبحث الثاني:
الظلم والكفر والتكبرُّ أساس كلّ احتجاب

يُعدُّ الظلم والكفر والتكبر من الأمور المانعة للمعرفة القلبيَّة والعقليَّة، وهي تقف كالسد الكبير أمام نمو بذرة الإيمان بالله ،تعالى، في داخل الإنسان ..

فالظلمُ يعني التّجاوز ووضع الشيء في غير مكانه الخاص به، والكفر يعني إخفاء الحقيقة بدافع جلب النفع والتحقير والتعصب، والتكبر يعني نرجسيَّة الذات المتضخِّمة واستعلاءها وترفّعها على غيرها،

والنظر للناس كقطيع.. فهذه حجبٌ ثلاثة تُعمي بصيرةَ العقل والقلب، وهي أيضاً أمراض قد تتفشَّى لتمنع الإنسان من المعرفة والإيمان.. يقول ،تعالى،: ﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ**﴾[العنكبوت: ٤٩]. ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الأنعام: ٣٣]. ﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾[لقمان: ٣٢]. ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾[غافر:٣٥].

وحتى لو وجدنا شخصاً اعترف بحقيقة ما من حقائق الإيمان، فقد يمنعه تكبره وظلمه من العمل بما يؤمن ويعتقد، وهذا ا يؤكده القرآن في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[النمل:١٤].

● المبحث الثالث:
أصل هذه الحجب وجذرها الحقيقيّ

ذكر القرآن الكريم أنَّ الظلم والكفر والتّكبرُّ والتعالي هي الحجب الأساسيّة التي تحول دون وعي الآيات وإدراك حقيقة العلامات والقرائن والدلالات الإلهيَّة الواضحة..

ولكن ما هي جذور تلك الموانع؟!.. إنَّ كل تلك الموانع تعود إلى جذر واحد هو الهوى وحب الذات ونرجسيَّتها.. يقولُ ،تعالى،: ﴿**أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَريقاً كَذَّبْتُمْ وَفَريقاً**

تَقْتُلُونَ﴾[البقرة:٨٧].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمينَ﴾[البقرة:١٤٥].

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرينَ﴾[الروم:٢٩].

﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾[ص:٢٦].

ولقد صَرّح إمامنا الصادق(ع) ضمن السّياق نفسه قائلاً: «ولعمري ما أُتِيَ الجُهَّالُ من قِبَلِ رَبِّهِمْ وإنّهم لَيَرَوْنَ الدّلالات الواضحات والعلامات البيِّنَات في خَلْقِهِمْ وما يُعَايِنُونَ في ملكوت السّماوات والأرض والصُّنْعَ العجيب المُتْقَنَ الدَّالَّ على الصَّانعِ ولكنّهم قوم فتَحُوا على أنفسهم أبواب المعاصي وسهّلُوا لها سبيل الشّهوات فغلبت الأهواء على قلوبهم واستحوَذ الشّيطان بِظُلمِهِم عليهم وكَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِي»[1].

يتضح من معنى كلمات الإمام الصادق(ع) أنّ عدم الاعتراف بالله وتكذيب آياته الإلهيَّة هما نتيجة لهوى الإنسان ومعصيته ومكابرته، وليست ناجمة عن أي شكل من أشكال الجبر.. واللطف الإلهيُّ محيط بالإنسان والعباد عموماً في كل وجوده وحياته، ولو علم الله أنَّ شخصاً

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص١٥٢.

سيتبع سبيل الحقيقة إذا عرف بها، وأن أساس الخطأ لديه هو جهله، فإنه -تعالى- سيهيئ له أسباباً لخروجه من جبر المحيط.. وأما الناس الذي حَرموا أنفسَهم من سلوك طريق الحقيقة ومعرفتها، فيسميهم ،تعالى، بشر الدواب، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾[الأنفال:٢٣].

ويمكننا العثور في التاريخ على كثير من الأمثلة والنماذج لأشخاص سبقَ أنْ عاشوا حياتهم ضمن مُناخات الفساد والإفساد، ولم يتمكنوا من سلوك طريق الحقيقة بصورة طبيعية، ولكنهم عثروا على مواقع السعادة تحت ظل المدد الإلهيِّ والعناية الغيبية له ،تعالى،.. والنبيّ موسى(ع) أحد أهم النماذج الربانيَّة في هذا السياق، حيث إنَّه(ع) كان نشأ وترعرع في مُناخات الفرعونيَّة الفاسدة القائمة على التجبر والطغيان وهوى النفس والتكبر، كما أن نبيَّنا الكريم(ص) نشأ في مجتمعات عربية جاهلة تتعبد الأحجار والأنصاب..

● المبحث الرابع: الموانع الدائمة والمؤقَّتة

لا تتحقَّق المعرفة من تلقاء ذاتها، بل لها دوافع ومسببات، كما أن لها عوائق وموانع، وقد تكون هذه الموانع مؤقَّتة ممكنة المعالجة والتجاوز أو

دائمة صعبة أو غير قابلة للحل والعلاج، كأن يكون هوى النفس وسلوكيَّات المعصية -وما ينتج عنها من ظلم واستكبار وكفر وتبذير وارتكاب الفواحش- متجذراً في جوَّانيَّة الإنسان كملكة نفسيَّة عميقة.. فهكذا إنسان لا يمكنه الوصول للمعرفة الحقيقيّ، بل هو عاجز تماماً عن معرفة الله وإدراك حقيقته.. لأنَّ البصيرة مغلقة ومحجوبة بالأهواء والمعاصي الراسخة.

ولكن هناك أناس لديهم أمراض متعلقة بهوى النفس ومعاصي الذات، ولكنها أمراض مؤقَّتة غير راسخة، بل ظاهرة على سطح النفس، فهذه موانع للمعرفة يمكن علاجها ودفعها للسير والسلوك على طريق المعرفة الحقيقيَّة وإدراك معرفة الله ،تعالى،.. والملحوظ أنَّ كتاب الله (القرآن) يعبر عن الآثار الناجمة عن تلك الأمراض بكلمات وألفاظ: القساوة، الختم، الطبع، والرين وغيرها.. والإنسان المصاب بمرض هوى النفس يصبح قاسي القلب ومحجوب البصيرة عن الإدراكات الحقيقيَّة.. يقول ،تعالى،: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء**﴾[البقرة: ٧٤].. إنه يؤكد أن كثيراً من الآيات والحجج والإشارات والقرائن والدلالات الواضحة والمعبرة والقاطعة التي جاءت لبني إسرائيل، لم تحرك فيهم للأسف أي موقع للإيمان والمعرفة الحقيقيَّة نحوه ،تعالى،.. بما الحجب كثيفة وسميكة وصلبة قاسية إلى درجة منعتهم من رؤية ولو مجرد نور بسيط من أنوار الحقيقة.

وهكذا، عندما يتحكم هوى النفس وشهواتها على القلب والبصيرة، ويصبح الهوى إله الإنسان، فإنه ،تعالى، يقفل باب معرفته الرُّوحيّة والقلبيَّة، ويطبع على القلب ويختم عليه بقوة، يقول -تعالى-: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ**﴾[الجاثية: ٢٣]. ﴿**كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ**﴾[يونس: ٧٤]. ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**﴾[الأعراف: ١٠١].

الفصل السّابع

سُبل الكمال وطرقه الأساسيّة
(الإيمان-الهجرة-الجهاد)

مقدّمة

لا كمال أرقى من لقاء الله ،تعالى، والحضور المستمر والدائم معه في مواقع عظمته وقيمه الرفيعة.. ولا سعادة تقارن مع سعادة التقرب منه، عزَّ وجلَّ.. ولكن كيف السبيل إلى هذا اللقاء؟ وما هي وسائله وطرقه الموصلة إليه؟ وما العمل المطلوب من الإنسان حتى يكون الحق، عزَّ وجلَّ حاضراً معه في كل ما يتعلق بوجوده وحياته؟!.

● المبحث الأول: مقوِّمات السلوك التكامليّ

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**الَّذينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فيها نَعيمٌ مُقيمٌ**﴾[التوبة: 20-21].

وهي آية تنير لنا عدة جوانب من سبيل التكامل وطرقه المؤدِّية إلى اللقاء به،تعالى،.. ويأتي على رأسها الإيمان بالله، والهجرة في سبيله، والجهاد لرفع راية الحق والدعوة لدينه ورسالته.. ومن يسلكها فهو من الفائزين.. يقول ،تعالى،: ﴿**أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ**﴾، ﴿**وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ**﴾..

نعم، فشرط القرب منه ،تعالى، هو أن يتحركَ الإنسان المجاهد على طريق التقوى والإيمان السليم والصحيح، ويسعى مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يسير على طريق الجهاد للدفاع عن دين الله، فإما أنْ يحقِّق النصر أو ينال شرف الشهادة في سبيله ،تعالى،، ليصل إلى جنته الموعودة حيث لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيناجي ربه قائلاً: "إلهي! بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئنّ القلوب إلاّ بذكراك، ولا تسكن النفوس إلاّ عند رؤياك"[1].

● المبحث الثاني: الإيمان واللقاء

الإنسان السويُّ في فطرته وعقله يميل ميلاً طبيعيّاً إلى الإيمان بمقدس ما.. لأن موضوع الإيمان شأنٌ ذاتيٌّ بشريٌّ يمكن القول بأن مختزن في ذاته بالقوة. ومعنى هذا الإيمان في الإطار العملي، الخضوع التسليميّ -إذا صحَّ التعبير- لفكرة أو قيمة أو حقيقة ما..

وأما الإيمان في الدين الإسلاميّ، فهو يعني التسليم الكامل والمطلق

---

١ - الإمام زين العابدين(ع)، الصحيفة السجادية، مناجاة الذاكرين.

لقوة مدبِّرة هي الله ،تعالى، الواحد الأحد، مالك الكون والوجود، ورب العالمين، والإقرار بكل متعلقات هذا الإيمان من سلوكيَّات وتصرفات وأحكام وأعمال وإلزامات أخلاقيَّة عمليَّة.. ويأتي الإيمان في الإسلام في مقابل الكفر..

إنَّ الإيمان بالله ،تعالى، هو الطريق الأساسيّ للعمل والحضور الإنسانيِّ الفاعل في الحياة، ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى غايته وكماله ومبتغاه من دون البعد الإيمانيّ، فهو ممرٌّ إجباريٌّ لتحقق الهدف النهائي للمسيرة البشريّة وصولاً للسعادة، يقول ،تعالى،: ﴿**يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**﴾[الانشقاق: ٦]..

وهذا الإيمان هو أهم شرط للفوز بنعيم الآخرة والنجاة من عذاب النار.. بل هو العامل الوحيد لكسب رضاه ،تعالى،.. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فى إيمانِها خَيْراً**﴾[الأنعام: ١٥٨]. كما نجد أن الكفر بالله ،تعالى، هو أهم سبب لدخول النار والحرمان من رحمته، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**قُلْ لِلَّذينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ**﴾[آل عمران: ٢٠١]. بما يعني أن الوصول لمستوى اللقاء به،تعالى، ومعرفته معرفة عقليَّة وقلبيّة يقينية مرهونة للإيمان والعمل بأركانه، يقول ،تعالى،: ﴿**الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ**﴾[البقرة: ٤٦]، ﴿**وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ**﴾[هود: ٢٩].

ويتوسع القرآن في الحديث عن الإيمان ليس فقط كشرط للقاء الله وحدوث التكامل الرُّوحيّ والنفسي والسلوكي للإنسان، بل أيضاً كسبيل للوصول إلى الخيرات والسعادة في الدنيا والآخرة.. أمَا أولئك الذين كفروا ولم يؤمنوا، أو أنهم آمنوا بآلهة غير الله ،تعالى، فسيتحرّكون باتجاه أشكال مزيفة من الكمالات الجزئية الناقصة، يتوهمون فيها الخير والسعادة، وهي في الحقيقة ليست سوى مجرد سراب أو زبد بحري.

والإيمان لا يكفي وحده لوصول الإنسان إلى ماله وسعادته، إذا لا بد أن يتعمق الإيمان إلى مستوى أن يؤثر في نفسية الإنسان ليثمر وينتج، في أن يتحرك على طرق الخير والتكامل.. إن الإيمان مهم ولكن يفقد أهميته ما لم تكن له نتائج ومآلات وآثار عملية مولدة للسعي والفاعلية الإنسانيَّة في أن تدفع الإنسان ليكون صاحب قلب متوجّه ومقبل لربه ،تعالى،.. بينما عدم الإيمان (أي الكفر) يمنع الإنسان من طرق الخير والسعادة، حيث يغلق أمام القلب كل منافذ الخير والسعادة التي ينشرها الله في ساحات الحياة.

من هنا، الإيمان لا يصح ولا يكون فاعلاً إلا بالاستناد على إيمان بالخالق العظيم، مالك الملك، الإله الذي بيده كلّ مفاتيح ومواقع الخير والكمال والسعادة التي يتطلع الإنسان نحوها.

وهذا هو نفس معنى التّوحيد، وأن يكون المرء موحداً.. وهو ليس مجرد أن يعتقد الإنسان بوجود خالق للكون والحياة، وأن لا يشرك به، بل هو أيضاً

أن يعتقد الإنسان بأنه ،تعالى، مصدر ونبع كل خير وسعادة، وواجب علينا أن نطلبه منه.. ولا يمكن أن نتحرك على هذا الطريق الإيمانيّ لنيل هذه الدرجة الإيمانيَّة من دون وسيلة تعمق هذا الإيمان وترسخه في القلب، وهي العلم الصالح، يقول ،تعالى،: ﴿**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى**﴾[سورة طه: ٧٥]. وأهمّ هذه الأعمال التي تساعدنا في التقرب إليه ،تعالى، واللقاء به، الهجرة إليه والجهاد في سبيل إحقاق كلمته ورفع رايته، راية التوحيد: ﴿**وَالَّذينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللَّهِ وَالَّذينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَريمٌ**﴾[الأنفال: ٧٤].

● المبحث الثالث: الهجرةُ في سبيل الله

تعدُّ الهجرة إلى الله ،تعالى، التعبير العملي الأصدق عن الإيمان به، وهي الخطوة الثانية بعد الإيمان والاعتقاد القلبيّ به ،تعالى،.. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شىء حَتَّى يُهاجِرُوا**﴾[الأنفال: ٧٢]. والهجرة على عدة أشكال ودرجات:

الهجرة من بلدان الكفر والشرك إلى ديار الإسلام والإيمان، بحيث يتمكن الإنسان من أداء تكاليفه والتزاماته، والأمان على دين: ﴿**وَمَنْ**

يُهاجِرْ فى سَبيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُراغَماً كَثيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحيماً﴾[النساء: ١٠٠].

الهجرة بمعنى ترك المعاصي والقبائح وهجرَان الخبائث، وكل ما يقف حائلاً بين المرء وبين لقاء ربه والظّفر بجنّته، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾[المدّثر: ٥].

الهجرةُ بالبدن وذلك من خلال الامتناع عن السير وراء أهل الفجور والفسق والضلال، والامتناع عن مخالطتهم، وعدم الجلوس مع أهل البغي والطغيان، ولا مع أبناء الدنيا ممن يستغرقون في زخارفهم ويمنعون الناس عن سبل الرحمن. وتكون الهجرة أولاً لعدم قبول أفكارهم والميل مع توجهاتهم، ورفض عاداتهم وسلوكياتهم التي تخالف الدين وأحكامه وشرعه.

لقد اعتاد كثير من الناس في مجتمعات المادَّة التي لا مكان للروح والتفكير بالآخرة فيها، على قياس كل شيء بالاستناد للمصالح الماديَّة حتى باتت عادة وتقليداً لديهم، وباتوا ينظرون لكل من يرفض هذا المنطق المادي نظرة دونية واستخفاف واستهزاء، وينسبون الجهل لهم.. إنَّ الواجب الأخلاقيّ والشرعيَّ يقتضي ترك مجالس هؤلاء ورفض تقاليدهم وهجرانها دون أي خوف من اتهام يوجه من قبلهم.. فالله أحق أن يتبع، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً**﴾[المزمل: ١٠].

أنْ يهجر الإنسان نرجسيّته وحبه لذاته الواصلة حد التورم الشخصي.. ويترك ظلمة جوَّانيَّته مهاجراً إلى رحاب النور والإشراق الإلهي، ويدخل في مضمار: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦]. ولا شك في أنَّ هذه الهجرة هي هجرة حقيقيَّة لأنها هجرة لقاء الله ،تعالى، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[العنكبوت: ٢٦].. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[النساء: ١٠٠].. إنَّ الهجرة قيمة وسلوك ربانيٌّ مطلوب بنيَّة صادقة للوصول إلى لقاء الله ،تعالى، وكل من يتحرك في خط الهجرة ويموت، فإنّ أجره وثوابه على الله، وهو سوف يوفّيه إيّاه حتماً.

● المبحث الرابع: الجهادُ في سبيل الله

هناك بعض الناس يزعمون أنَّهم يريدون كسب مرضاته ،تعالى، والتقرب منه، دونما أي فعل أو عمل، أيْ أنَّه يبقى مجرد كلام بعيد عن التنفيذ وإثبات النيَّات الحسنة بالفعل والسير والسلوك.. إذ ليس كلّ من ادّعى ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الصافات:٩٩] صحّت هجرته إلى ربّه.. من هنا أفضل وأهم سبيل وعمل لإثبات صدق التوجه لنيل

رضا الله ،تعالى، وتعميق الإيمان به والتقرب إليه ،تعالى، هو الدفاع عن مقدساته من خلال الجهاد.. فقد سُئل الإمام الصادق(ع): أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال(ع): «الصّلاة لوقتها وبرّ الوالدين والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ"[١].. وعنه(ع) أيضاً أنّه قال: "الجهادُ أفضل الأشياءَ بعد الفرائض"[٢]، وهو أشرف الأعمال أيضاً كما قال الإمام علي(ع):"الجهادُ أشرفُ الأعمال بعد الإسلام، وهو قوامُ الدين، والأجرُ فيه عظيم"[٣].

وجاء عن الإمام علي(ع): «إن الله، عزَّ وجلَّ، فرض الجهاد وعظّمه، وجعله نَصْرَهُ وناصِرَه، والله ما صلَحت دنيا ولا دين إلا به"[٤]. إنها عظمة ركن أصيل وأساسيّ من أركان الإسلام.. يقول أمير المؤمنين(ع): "الإيمانُ أربعة أركان: الصّبر واليقين والعدل والجهاد"[٥]. ولزيادة الأهمِّيَّة والقيمة الكبرى التي يمثلها هذا الركن، فقد عدَّه النبيّ الكريم(ص) بمنزلة المنهج العملي للإسلام قائلاً: "سياحة[٦] أمّتي الجهاد"[٧].

والجهادُ في الإسلام على نوعين وقسمين، حدَّدهما الرسول الكريم(ص)

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٥٨.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص٣.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص٣٦.
٤ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص٨.
٥ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل،ج١١، ص١٦.
٦ - السياحة: تعني الطريق والمنهج.
٧ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٤.

في قوله: "مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل له: وما الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس»[١]. ويعني الجهادُ الأصغر مواجهة العدوّ الخارجي الذي يريدُ شراً بالإسلام والمسلمين، ويمنعهم من بناء دولة الإسلام وحكم الله على الأرض، وتتنوَّع أشكال تلك المواجهات من العلميِّ إلى السياسيِّ فالعسكريِّ فالاقتصاديِّ وغيرها.. يقول الإمام علي(ع): «أما بعد، فإنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه اللهُ لخاصّة أوليائه، وسوّغهم كرامة منه لهم ونعمة ذخرها. والجهاد هو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء»[٢].

أما الجهادُ الأكبر (وهو الأهم لأنّه أساسُ بناء الشخصية الإسلاميَّة) فيعني محاربةَ العدوّ الداخلي في الإنسان، وهو عدو باطني من النزوات والأهواء والنفس الأمّارة بالسوء، والتجربة أثبتت أنَّ هذا العدو الداخلي أشد خطراً من أي عدو آخر خارجي، كما أخبرَ عن ذلك الإمام علي(ع) في وصيته المعروفة: «اللهَ اللهَ في الجهاد للأنفس فهي أعدى العدوّ لكم، إنه تبارك وتعالى، قال: إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وإنَّ أول المعاصي تصديق النفس، والركون إلى الهوى»[٣].

والسبب في إطلاق النبيّ الكريم(ص) صفة الأكبر بالجهاد الداخلي،

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٣٧.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص٤.
٣ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٣٨.

لأنه أشد أهمِّيَّة والهزيمة فيه هي الهزيمة الحقيقيَّة، كما أن تحقيق النصر فيه هو النصر الحقيقيّ والأكبر.. وأما بالنسبة إلى الجهاد الأصغر فالخسارة فيه ليست هزيمة كاملة ومطلقة فالهزيمة بل هي نيل إحدى الحُسْنيين.. على عكس الجهاد الأكبر، حيث أن فشل الإنسان في السيطرة على شهواته وعجزه عن لجم أهوائه ونزواته، سيؤدي إلى سيطرة النفس الأمارة بالسوء على حركته وأعمال، فيسقط في براثن عبودية الهوى والانقياد وراء ذاته وأنانيَّته بعيداً عن ميدان عبودية الخالق عزَّ وجلَّ.. يقول تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣]..

إنّ تركيزَ الإسلام على الجهاد الأكبر يأتي على خلفية أنَّ بناء الشخصية الإسلاميَّة هو القاعدة الأساس لبناء المجتمع السليم والمعافى، وحتى نبني الإنسان المؤمن الصحيح والسليم، يجب أن تتم تربيته على الأخلاق ومحاربة النزوات وأخلاق السوء في الإنسان والتعلق بزخارف الدنيا.. وهذا هو الجهاد الأكبر، جهاد النفس الخاطئة، الأمارة بالسوء، يقول تعالى: **﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحيم﴾**[يوسف: ٥٣].

إنَّ بناءَ النفس وتربيتها على أخلاق الدين وقيمه الأصيلة، هي من أهم سبل ومعايير هذا الجهاد الأكبر، وتعزيز قيم الإيمان والهجرة إلى الله

،تعالى، والتقرب منه، فهذا هو الفوز العظيم، يقول ،تعالى،: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ**﴾[التوبة: ٢٠].

الفصل الثّامن

كمالُ الإنسان في المسارعة إلى اللّه

● المبحث الأول:
كمالُ الهجرة والجهاد

تحدّثنا سابقاً عن أنّ أفضل وأعظم كمال للإنسان هو في أن يرتبط الإنسان بالله ،تعالى، وأنَّ أسلم طريق وأفضلها للوصول إلى هذا الهدف (الكمال الإنساني) هو الكدح والعمل نحوه ،تعالى، والالتزام بنهجه، والشعور به حاضراً في كل ما يتعلق بحياته وشؤونه كلها، يحاسب نفسه ويراقبها على الدوام.. وإذا ما تمكن الإنسان من الوصول إلى هذا الموقع المتقدم في الخشية الإيمانيَّة، فإنَّه سيكون أكثر حرصاً على الالتزام بأوامره، تعالى، وعدم ارتكاب محرماته ومعاصيه.. والالتزام يعني من جملة ما يعني أنْ يقومَ الإنسانُ بواجباته في العبادة والطاعات والتي يأتي على رأسها الهجرة والجهاد في سبيل الله ،تعالى،، يقول ،تعالى،: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ**﴾[البقرة: ٢١٨].

وللهجرة والجهاد شرطان أساسيّان لا بد من تحققهما حتى يتحرك المرء على طريق اللقاء به ،تعالى، لتسمو روحه وتشرق معاني الحياة في نفسه، والشرطان هما: المسارعة في طريق الحق، والمسابقة في طريق الحق.

● المبحث الثاني:
المسارعة في طريق الحقّ

المسارعة لفظ وتعبير قرآني ورد في قوله ،تعالى،: ﴿**وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..**﴾، فترْكُ ما حرمه الله ،تعالى، والعمل على أداء الواجبات والالتزامات الإلهيَّة هو السبيل للقاء الله ،تعالى، والحصول على مرضاته والإحساس الحقيقيّ بالسعادة في الدنيا ونيل جنته ،تعالى، في الآخرة.. والإنسان الذي يتطلع للارتباط الوثيق بالله واللقاء به، تراه يلح دوماً في الطلب من الحق بأن يوفقه أكثر لأداء أفضل العبادات والطاعات ويقوم بها على أكمل وجه، أيْ أنَّه يسارع إلى الأعمال التي تجعله قادراً على بلوغ الدرجات الأعلى عند الله ،تعالى، في الإسراع على سبيل الحق والخير والعمل التَّقويّ الصّالح.. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وهو من أهمّ فضائل النفس، كما قال الإمام علي(ع): «من فضيلة النفس المسارعة إلى الطاعة»[١].

إنَّ الالتزامَ بكلّ ما يرضي الله ،تعالى، من فعل الخيرات والمسارعة إلى الطاعات والعبادات، وهجران المعاصي والارتكابات، والسير نحو جهاد النفس والعدو، كلها أمورٌ تكشفُ مدى حرص الإنسان المؤمن الملتزم

---

١ - الآمدي، غرر الحكم، ص١٨٢.

على السعي في طريق الحق ومحاولة التقرب إليه.. وهذا السلوك والإصرار على السعي لدى المؤمن الملتزم يختلف عن سعي آخرين، ولهذا نجد أنه ،تعالى، لم يساوِ بين من يسارع إليه طلباً للرضا والمغفرة، بل هو يفضل المسارعين الصالحين.. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[آل عمران: ١١٣-١١٤].. ومما أوصى به الإمام عليّ(ع): «فَاتَّقُوا اللَّهَ عزّ ذِكْرُهُ، وَسَارِعُوا إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِه، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهِ الرِّضَا فَإِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَعْمَلُ بِمَحَابِّه، وَيَجْتَنِبُ سَخَطَهُ»[1].

والملاحظ أنّ المسارعة إلى فعل الخيرات هي من صفات الإنسان المؤمن الملتزم الممتلئ بالإيمان والخيرات والسعي في أعمال البرّ والإحسان.. يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ**﴾[المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

أمّا الإنسان غير الملتزم الذي بدَّل نعم الله بشرور النفس ونزوات

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص١٧٣.

الحياة، وبات كافراً بنعمه ،تعالى، يفعل القبائح والمنكرات، فإنَّه لن يضرّ إلا نفسه، وهو في الحقيقة في عداد المحرومين من رحمته ،تعالى،.. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُريدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ**﴾[آل عمران: ١٧٦].

● المبحث الثالث: المسابقة في طريق الحقّ

إنَّ العمل الصالح في حركة العلاقات مع الناس، هو التجسيد العملي للإيمان.. وحتى يكون الإنسان من أهل الآخرة يجب عليه أن يتحرك في سبيل العبوديَّة لله بسلوكه وليس فقط بقناعاته وأفكاره وإيمانه.. يقول ،تعالى،: ﴿**وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فى ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[المائدة: ٤٨].

وحتى يثبت المرء صدق نيَّاته عليه أن يتسابق في فعل الخيرات والعطاء وتجسيد قيم الدين الأخلاقيّة والسلوكيَّة، يقول ،تعالى،: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ**﴾[البقرة: ١٤٨].

والمعنى الأساسيّ الذي يختزنه لفظ "المسابقة" هو أن يسابق الإنسان

الآخرين في فعل الأعمال الصالحة وفعل الخيرات التي تسهم في تقريبه أكثر من الحق، عزَّ وجلَّ.. فخدمة الناس والتسابق في العطاء سبيل من سبل التقرب إليه ،تعالى،..

إنَّ الإنسان المسلم عليه واجب ترك المحرمات وكل فعل فاحش صغُر أم كبر، كما عليه واجب القيام بالواجبات والعبادات والطاعات التي تقربه من الحق، وفي الحالتين ينبغي على الإنسان الصادق الاستعانة بالمسابقة سواء في ترك الحرام أو فعل الواجب، لكي ينأى بنفسه فيما بعد عن كل ما يشغله ويعوقه ويعترض سبيله عن الوصول والتقرب.. جاء عن الإمام الصادق(ع) أنّه دخل عليه عيسى بن عبد الله القمّي فرحّب به وقرّبه من مجلسه، ثم قال له: «يا عيسى بن عبد الله! ليس منّا ولا كرامة لمن كان في مِصْرٍ فيه مائة ألف أو يزيدون، وكان في ذلك المِصْرِ أحد أورع منه»[1].

لذا أَمر الله، عزَّ وجلَّ، المؤمنين بأن يتسابقوا إلى المغفرة والأعمال الصالحة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظيمِ**﴾[الحديد: ٢١]. كما أنه عزّ اسمه لم يورث كتابه من قبل إلاّ لعباده الذين اصطفاهم ممن كانوا يسابقون في الخيرات ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا**

١ - الشيخ الكليني، الكافي،ج٢، ص٧٨.

فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[فاطر: ٣٢].

لقد صنّف الله، تعالى، الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف ذكرهم في كتابه العزيز حيث قال **﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾**[الواقعة: ٧-١٢]. فأصحاب الميمنة؛ هم الذين يعطون يوم القيامة كتبهم بأيمانهم، قال تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾**[الحاقة: ٢٠]، وهذا الصنف وإنْ كان من الناجين ومن أهل السعادة والحبور، ولكنه دون الصنف الثالث الذي سوف يأتي الكلام عنه. وأصحاب المشأمة؛ هم الذين يُعطَون كتبهم بشمالهم، قال تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ﴾**[الحاقة: ٢٧].

أما السابقون السابقون فهم الذين سبقوا الآخرين في فعل الخيرات والتقرب منه ،تعالى. والحق، تعالى، وإن كان أطلق هنا السبق ولم يبيّن إلى أيّ شيء يسبقون ويسرعون، ولكنّه ،تعالى، بيّنه في سورة «المؤمنون» كما ذكرنا سابقاً **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ**

وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾[المؤمنون: ٥٧ - ٦١]. فالسابقون إذاً هم الذين يؤمنون بقيم الدين وأركانه الأساسيّة، في التوحيد والمعاد وتطبيق قيم الدين، والإخلاص له، والدفاع عن مقدَّساته وقيمه..

وجاء في حديث عن الإمام الصادق(ع): «يا جابر: إنّ الله، تبارك وتعالى، خلق الخلق ثلاثة أصناف، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾. فالسابقون هم رسل الله(ع) وخاصَّة الله من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح؛ أيّدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياءَ، وأيّدهم بروح الإيمان فبه خافوا الله، عزَّ وجلَّ، وأيدهم بروح القوة فبه قدروا على طاعة الله، وأيّدهم بروح الشهوة فبه اشتهوا طاعة الله، عزَّ وجلَّ، وكرهوا معصيته، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون»[1]. وللتأكيد على أهمِّيَّة السبق وضرورته بالنسبة لأهل الآخرة التوّاقين إلى لقاء ربهم، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً: «إنّ الله سبّقَ بين المؤمنين كما يُسَبَّقُ بين الخيل يوم الرّهان، ثم فضّلهم على درجاتهم في السَّبْقِ إليه، فجعل كل امرئ منهم على درجة سبْقه لا ينقصه فيها من حقه ولا يتقدّم مسبوق سابقاً، ولا مفضول فاضلاً، تفاضل بذلك أوائل هذه الأمة وأَواخرها»[2].

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٧١.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٠.

الفصل التاسع

﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدونِ﴾
العبوديَّة غاية

● المبحث الأول:
العلاقة بين العبوديَّة والفطرة الإنسانيَّة

يميلُ الإنسانُ بطبعه وفطرته إلى الارتباط بعظيم والخضوع أمامه، حتى إنَّه قد يحاول فعل أيِّ شيء يرضيه، وكلما زاد تعلّقه به وانجذابه إليه يزداد خضوعه بحيث يبدو مستعداً لتنفيذ كل ما يطلبه منه.. فالإنسان مخلوق ضعيف، ومحتاج، ويفتقر للقوة الحقيقيَّة، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[فاطر: ١٥]، ﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ**﴾[محمد: ٣٨].. وربما يكون هذا الأمر هو السبب الأساسيّ لتلك الحالة النفسيَّة من الانصياع والخضوع التي تعتري الإنسان في حياته..

هذا الشعور الإنساني بالضعف، وهو شعور عميق ذاتيٌّ جوانيٌّ، يدفع الإنسان إلى البحث عن موجود أقوى وأعظم وأغنى، لسد عجزه ونقصه.. فيتوجه نحو ذل الموجود الأرقى والأكمل من خلال العبادة والخضوع فيها.. والفطرة الإنسانيَّة لا تطلب الخضوع بشكل عبثيٍّ فوضويٍّ، بل تطلبه وعياً وحقاً لأنَّه سبيل أساسيّ لتحقق كمال الإنسان في سعيه للسعادة والشعور بالأمان الحقيقيّ في دنياه.

● المبحث الثاني: أنواع البشر وأصنافهم

خَلَقَ اللهُ، تعالى، البشر، وجعلَ في فطرتهم حبّ التّوجه إلى الكمال.. ولكنّ الناسَ ليسوا على طريق سويَّة واحدة، فهم صنفان، صنف يتطلع إلى الكمال والسعادة من خلال الملذات والشهوات والاستغراق في الحياة الدنيا بزخارفها وفتنتها، فيبني وجوده على الهوى والمزاج وعبوديَّة الذات في نزواتها وغرائزها، وهذا ما تحدث عنه الله في كتابه الكريم: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾[الجاثية: ٢٣].

وصنف آخر من الناس يتطلع إلى الكمال بتوجُّهه نحو الله، تعالى، كمحور لحياتهم ووجودهم، يعبدونه ويطلبون رضاه، ويسعون في طريق الإيمان وفعل الخيرات احتساباً وطاعة له ،تعالى،.. فهو المعبود غير المتناهي، مالك الملك، وخالق كل شيء، القوي القادر القدير، يقول تعالى: ﴿**تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**﴾[الملك: ١]. وهذا التوجه فطري يتقوى ويشتد في واقع الحياة بالعبادات وفعل الطاعات، والعمل على الالتزام بأحكام الشرع والدين.. وأمام هذه الحقيقة الفطريَّة الإنسانيَّة التي زرعها الله في داخل الإنسان، يتعالى، الصوت

والنداء الإلهيِّ: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عَلَيْه﴾[هود: ١٢٣]... بما يعني أنّ العبوديَّة أمرٌ فطريٌّ في الإنسان، يقتضي منه السعي إلى تجسيد حقيقة العبوديَّة من خلال الطاعات وعدم فعل أي أمر إلا إذا كان فيه لله رضى.

● المبحث الثالث: لماذا العبوديَّة؟

قد يسألُ أحدهم: لماذا جعلَ اللهُ، تعالى، العبوديَّة سبيلاً أساسيّاً لخروج الإنسان من حالات النقص والاحتياج البشريّ، ومن ثَمَّ للوصول إلى الكمال والتقرب منه،تعالى،؟! ثم ألا توجدُ سبلٌ وطرق أخرى يمكنُ أنْ يتحركَ فيها الإنسانُ وصولاً إلى تحقيق كماله الممكن له؟!..

في الحقيقة، إنَّ امتلاكنا لجوابٍ سليم وصحيح ومنطقيّ للسؤالين السابقين، يقتضي أولاً أن نحوز على معرفة واقعيَّة دقيقة وحقيقيَّة عن نفس الإنسان وطبيعة اتجاهاتها وبنيتها الفطريَّة.. جاء عن الرسول الكريم(ص): "من عرف نفسه عرف ربه"[1].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٣٢.

يجبُ أنْ نعلمَ بدايةً أنّ النفسَ البشريّة نفسٌ محتاجة وناقصة، لا تعيش من دون طاعة وخضوع وإيمان بشيء عظيم أكبر وأعظم منها، يمكن أنْ يسدَّ نقصها، وتستند عليه في حياتها، لتؤمن من خلاله راحتها وسعادتها وكمالها..

من هنا يمكن القول: إنَّ الإنسان لا يمكن أن يكون في حركته الحياتيّة إلا عابداً ومطيعاً (نتيجة ضعفه الوجوديِّ ونقصه العمليِّ)، لموجودٍ كامل مكتمل عظيم.. والغاية تكمن في سعيه لنيل السعادة الخالدة والمستمرة التي لا يعتريها زوال ولا نقص ولا فناء.. والتوجُّه لا يكون نحو مخلوق ناقص وضعيف ونسبيٍّ، بل نحو خالق كامل مطلق سرمديٍّ.

● المبحث الرابع: العبوديَّة لله كممرٍّ إجباري لا مفرّ منه

إنَّ العبوديَّة أساس الدين، ولا يمكن للإنسان أن يدرك ما عند الله ،تعالى، من دون عبوديته وطاعته، لأنه ،تعالى، مصدر كل سعادة ويَنبوع كل عطاء وطمأنينة وراحة وسلام.. فالعبوديَّة سبيل وتعبير عمليٌّ عن التوجه نحوه ،تعالى، يقول الإمام علي(ع): «إنّه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»[1].

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٣٤.

والطريق الأخرى لإرواء عطش الإنسان للتطلع نحو الكمال والعبوديَّة، هي الاستغراق في الدنيا وعبودية زخارفها، وسعيه لتحصيل ملذّاتها وكمالاتها الموهومة الفانية، ولكنها طريق قصيرة زائلة، ستزيد صاحبها جوعاً ونهماً وعطشاً وارتباكاً وتضليلاً.. جاء عن الإمام الصادق(ع): "مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله"[1]. والسبب أنّ الدنيا -وبحكم كونها دار مؤقَّتة غير دائمة- لا يمكنُ أنْ تكونَ هي الغاية النهائيّة لمن يتطلع للخلود والسعادة والكمال الرُّوحيّ والعملي.. ولهذا طلبَ اللهُ من المعبود الناظر إليه ،تعالى، أنْ يطيعه ويتعبَّده ولا يشرك به أحداً، لأنَّ الطاعة هي التجسيد العمليُّ الحيُّ للإيمان والعبوديَّة والخضوع والمحبة له ،تعالى، ولا يمكن أن يجتمع في قلب العبد المؤمن إيماناً حقيقياً، محبة الله والآخرة، ومحبة الدنيا وزخارفها، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قلبيْنِ فى جَوْفِه**﴾[الأحزاب: 4]، ويقول تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**﴾[النساء: 36]، وقوله ،تعالى،: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾[الأنعام: ١٢١].

نعم. إنَّ الكمال لا يتحقق من دون إيمان حقيقي، وتجسيد الإيمان

---

١ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج٢،ص١٣٦.

يكون بالعبوديَّة له، تعالى، في مواقع الالتزام والطاعات، والانقياد الكامل له، عزَّ وجلَّ.. لتكون النتيجة العمليَّة لتلك العبوديَّة: "يا بن آدم! أنا غنّي لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنياً لا تفتقر يا بن آدم! أنا حيّ لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت يا بن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون"[1].

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٧٦.

الفصل العاشر

السّبيل الأوحد للعبوديَّة نحو اللّه

● المبحث الأول: شروط العبوديَّة

جاء الرسل والأنبياء لكي ينبهوا الناس وينذروا المجتمعات بضرورة الإيمان وتعليمها أسسه وأركانه المنطلقة من فكرة كيفية الحضور في محضر الله، عزَّ وجلَّ، والتفكر في نتائج إهمال طاعته وترك عبوديته، يقول تعالى: ﴿**قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطيعُونِ**﴾[نوح: ٢-٣]. ولا يدخل هذا المحضر الإلهيّ إلا من صفت نفسه وترقت أخلاقه، وعرف الله حق معرفته، أما من تلوث بالمعصية والآثام، فلا يدخله أبداً، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[الأنبياء: ٢٥].

نعم، أتى الأنبياء برسالة العبوديَّة لكل البشر، مؤكدين أنَّ لهذه العبوديَّة معاييرَ وشروطاً عديدة، أبرزها:

الشرط الأول-الالتزام التامّ والكامل بأوامر الله ونواهيه: فالإنسان العابد عبوديَّة حقيقيَّة هو المطيع لربه في كل ما يريده ويأمر به وينهى عنه ويدعو إليه من التزامات ومعايير وضوابط وغيرها، مما.. ومن باب أولى إلزامي يجب على العبد أن يشكره ،تعالى، من خلال حسن التزامه ودقة

فعله وعدم المباشرة بأي فعل أو عمل إلا إذا كان لله فيه رضى.

الشّرط الثاني-التسليم المطلق والكامل لإرادة رب العالمين: إذ لا يكفي فقط أنْ يعلن المرء بلسانه ويتحرك بفعله أنه عبد لله، بل يجب أن يتوافق ويتوازى التزامه العملي مع التسليم الكامل له ،تعالى، في كل حياته ووجوده، وألا يعترض على سيده بأي شكل من الأشكال، ولا يتأفف ولا ينزعج ولا يبدي أي ردة فعل سلبية مطلقاً، يقول ،تعالى، في خطابه للرسول(ص): ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليماً**﴾[النساء: 65].

الشرط الثالث-إخلاص النية والتوجه السليم: يقول عزَّ وجلَّ ﴿**فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدا**﴾[الكهف: ١١٠]. تحدد هذه الآية الكريمة شرطين أساسيّين للتقرّب من الحق ،تعالى، أولهما: الالتزام بمعايير وضوابط العمل الصالح من خلال اتباع أحكام الشرع والعمل الكامل به، وثانيهما: تقديسه وتنزيهه ،تعالى، وعدم الكفر به وبنعمه، والإخلاص له في السراء والضراء، يقول ،تعالى،: ﴿**وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاه**﴾[الإسراء: ٢٣]، فهو يأمر بالعبادة الكاملة التي يخلص فيها العابد لله ،تعالى، وحده ولا يشاركه فيها أحد، يقول تعالى: ﴿**وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّين**﴾[البيّنة: 5]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾[الزمر: ٢]، وقوله ،تعالى، لكل المسلمين: ﴿**وَادْعُوهُ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾[الأعراف: ٢٩]، وفي

مكان آخر يوجه تعالى خطابه لنبيه الكريم(ص) قائلاً: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾[الزمر: ١١].

● المبحث الثاني: سبلُ العبوديَّة وطرقها

إنّ السير على طريق العبوديَّة لا يتم إلا بتدريب النفس وترويضها بالخضوع للطاعات والعبادات، ويجب أنْ يستمرَّ هذا التدريب الفكريُّ والعمليُّ القائم -وما ينتجه من الأعمال الصالحة وفعل الخيرات- حتى تصبح الطاعة ملكة راسخة في نفس العابد.. إنّ الطريق إلى العبوديَّة يُسلك بتمرين النفس وترويضها بالعبادة والطاعة. فعلى إثْر دوام الطاعة، يصبحُ الانقياد العمليُّ ملكةً راسخة في النفس. فالعبوديَّة مقام نفسي وسلوكي لا يصله إلا من طهرت سريرته وزكَّى نفسه وأخضعها للعبادات المستمرة.. حتى يصل إلى مستوى أن يجعل إرادته تابعة كلياً لإرادة سيده وخالقه، لا يفعل أي شيء إلا بأمره ،تعالى،.. أيْ أنْ تكون كلُّ أفعاله وتصرفاته مرهونة برضاه ،تعالى، وهذا هو جوهر العبادة وأصل الإخلاص، يقول ،تعالى،: ﴿**وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً**﴾[الأحزاب: ٣٦].

● المبحث الثالث:
الالتزام بمقتضيات الشريعة الإلهيَّة كسبيل وحيد

خلقَ الله ،تعالى، الإنسانَ من أجل أن يتحرك ويسعى على طريق السعادة ومحاولة الوصول إلى كماله الممكن له، والتقرب إلى الله والسعي للقائه، يقول تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيهِ﴾[الانشقاق: ٦]. والعبوديَّة له ،تعالى، هي السبيل الأوحد لضمان الوصول لهذا الهدف الرفيع والعالي. جاءَ عن الإمام علي(ع) في عهده إلى مالك الأشتر، أنَّه قال: "هذا ما أمر به عبد الله عليّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه... أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتّباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلَّا باتباعها، ولا يشقى إلَّا مع جحودها وإضاعتها.."[١].. وجاء في الحديث القُدُسيِّ: "ما تقرب إليّ عبد بمثل ما يتقرب إليّ بالفرائض"[٢]، والسؤال الأهم هنا: ما هي وسائل ومعايير طاعة الله ،تعالى؟!..

في الواقع، لقد أرسلَ اللهُ، عزَّ وجلَّ، للبشرية شرائع ورسالات سماوية، ختمها برسالة الإسلام التي هي شريعة شاملة تحتوي على كلّ احتياجات الناس ومتطلّباتهم الحياتيّة في تنظيم شؤونهم وأحوالهم وعلاقاتهم مع أنفسهم ومع غيرهم.. وتقومُ تلك الشريعة الإسلاميَّة على قاعدة أساسيّة وهي أنَّها جاءت

---

١ - نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٣.
٢ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٣، ص٥٨.

لخدمة الإنسان؛ أيْ لمصلحته وإيصاله إلى كماله وسعادته.. وما عليه هنا سوى أنْ يلتزم بمعاييرها وقوانينه،وينفِّذ ما ورد فيها من أحكام في ما يتعلق بالحلال والحرام، لتكون أحكام الله هي الحاكمة وليس أهواء البشر.. وهذا المعيار (التقوى والطاعة) هو الذي سيوصل العابد المؤمن إلى جنة الله في الآخرة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا**﴾[سورة مريم: ٦٣]. أما لو عصى ورفض التعبد والتزام الطاعات، فمصيره جهنم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ**﴾[سورة غافر: ٦٠]. فالعبد الملتزم المتّقي هو المنفذ لأحكام شريعة الله التي تعد مرجعيَّته قبل أيِّ فعل يريد أنْ يفعله، وأيِّ قرار سيتخذه.. والشريعة الإلهيَّة تقسم عدة أقسام رئيسية:

- **الحرام:** وهو الذي يُعاقب الإنسان على فعله.
- **الواجب:** هو الذي يُعاقب الإنسان على تركه.
- **المكروه:** وهو الذي يُثاب الإنسان على تركه ولا يُعاقب على فعله.
- **المستحبّ:** وهو الذي يُثاب الإنسان على فعله ولا يُعاقب على تركه.
- **المباح:** وهو الحكم الذي يفسح فيه الشارع المجال للمكلف ليختار الموقف الذي يريده.

من هنا ينبغي على الإنسان -الذي سيسلك درب الإيمان ويلتزم بمقتضياته- أنْ يقوم بأمرين أساسيّين، هما:

أولاً: التعرّف إلى شرع الله (أي تعلّم الأحكام الشرعية).

ثانياً: تنفيذ هذه الأحكام وتطبيقها في حياته الخاصَّة والعامَّة.

الفصل الحادي عشر

موانعُ العبوديَّة للّه

● المبحث الأول: الغفلة

أولاً: موانعُ الارتباط بالحق

يسعى الإنسان إلى التقرب إلى الله ،تعالى، ويسعى إلى الكمال حتى يصل إلى مقام الشهادة، حيث السعادة الأبديَّة، لأنّ ﴿**ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ**﴾[سورة النحل: ٩٦]. ولا يكمن حقيقةً أن يصل المرء إلى مرتبة مقام الشهادة إلا بأنْ يعيَ مشقات رحلته وموانع سفره ورحلته وكدحه الارتقائي.. وهذا التعرف بخاطر السفر وموانع المسير التي تقف حائلاً أمام بلوغه هذا الهدف الشريف، أول خطوة في مسيرة الإنسان التكامليّة التصاعديَّة.. ومن أهمّ الموانع التي تمنع الإنسان عن الارتباط بربّه ودخول جنّته، هي:

- الغفلةُ عنه ،تعالى.
- الرّضا بزخارف الحياة الدنيا.
- العقائدُ المُضلة والفاسدة التي يؤمن بها بعض الناس.
- الذنوب والآثام وارتكاب المعاصي واتّباع الهوى والأنا الشخصية.

جاء عن إمامنا الصّادق(ع): «منْ رعى قلبه عن الغفلة، ونفسه عن الشهوة، وعقله عن الجهل، فقد دخلَ في ديوان المُنَبَّهِينَ»[1].

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص١١١.

ثانيًا: معنى الغفلة وحقيقتها

الغفلةُ هي نقصٌ في حقيقةِ التوجُّه (والشوق) عند الإنسان إلى المقصد النهائي له، وهو الله ،تعالى.. وقد يتحوّلُ النقصُ إلى انعدام كامل في التوجه.. وهذا مردّه إلى استغراق الإنسان في الدنيا ومباهجها وتناسي الله ورسالته، رغم علم الإنسان بحقيقة الدّين، وتعلمه لأحكامه ومبادئه وقيمه، ومعرفته بحقائق آيات كتاب الله ،تعالى.. يقولُ تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ**﴾[سورة الروم: ٧].. هذا هو التغافلُ عنه، تعالى، حيثُ تدركُ بوجوده ولا تعملُ برسالته، وعندها ستكونُ بعيداً عنه، يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[سورة ق: ١٦]، وأنّه معه أينما حطّ رحاله ويمّم وجهه، ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[سورة الحديد: ٤]، فإنّه سوف يهوي في وادي الغفلة. وعندما يستغرقُ المرءُ في غفلته عن ربّه ودينه، سيتهاونُ ويتذبذب في تطبيق شرعه والتزاماته وواجباته تجاه خالقه، وربما سيمضي قُدماً في محرماته..

لقد أرسلَ اللهُ الرسل والأنبياء من أجل إعادة تذكير النفوس بعهدها نحو بارئها، وإحيائها وتوجيهها نحوه ،تعالى.. فكل ما في الوجود مخلوق له، وكل أعمال ابن آدم يجب أن تجري وتتحرك بمرضاته ،تعالى.. والغفلة عن الدين ورب الدين هي من أخطر ما يواجه الإنسان في سعيه لنيل رضى

الله، تعالى، لأنه يدفعُ الإنسان للانشغال بقضايا وشؤون تقلل من التزاماته وربما تمنعه عن أداء واجباته تجاهه، تعالى، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ**﴾[يونس: ٧].

ثالثًا: كيفَ نتعرّفُ على "الغَافلين"؟

يصف القرآن الغافلين بأنَّهم ظاهرياً بشر وأناس مثل بقية البشر، يعيشون في المجتمع ويتحركون فيه بين الناس، ولكنهم يختزنون في دواخلهم صفات بعيدة عن حقيقة الإنسانيَّة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**﴾[الأعراف: ١٧٩]. فالغافلون لهم أجهزة تفكيريّة، ولكنهم بعيدون عن التفكر في آفاق الحياة وآيات الله، لهم أعين ولكنهم لا يشاهدون بدائع الخالق، ولهم آذان ولكنهم لا يسمعون إلا مصالحهم وما يريدونه من مكاسب خاصة، فهم عاجزون عن التفكر والتفقُّه والتأمل.. لهذا هم في درجات أدنى من البهائم ﴿**أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾، و﴿**أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**﴾.. وتأتي نتائج ومحصلة أفعالهم الدنيئة أن طبع ،تعالى، على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بطابع الغفلة والبعد عنه ،تعالى: ﴿**أُولئِكَ الَّذينَ طَبَعَ اللَّهُ**

عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾[سورة النحل: ١٠٨].

رابعًا: أسبابُ الغفلة وأصلها

ومن أهمها:

١. ضعفُ الإيمان ونقص الوازع الدِّينيّ: يقول الإمام الخميني(قده): "هل تعلم المسّوغ لفتورنا هذا في الأمور الدِّينيّة؟ إنّه لأجل عدم إيماننا بالغيب، وأنّ مرتكزات عقائدنا واهية، وإيماننا بالوعود الإلهيَّة والأنبياء مهتز ومتزلزل، إلخ»[١].

٢. حبُّ الدنيا والسقوط في مهاويها وزخارفها: جاء عن الإمام علي(ع) في كتاب إلى بعض أصحابه: "فارفض الدنيا، فإنّ حُبَّ الدنيا يُعمي ويُصِمُّ، ويُبْكِمُ، ويُذِلُّ الرقاب»[٢]. حيث يعدُّ أنَّ حب الدنيا يسقط المرء ويجعله غافلاً عن نعم الله وسبل اتباع أحكامه وقيمه.

٣. الجهل والتغافل عن الهدف النهائيِّ: عندما لا يعي الإنسان حقيقة وجوده والغاية من خلقه، ويغلق بصيرته عما وعده ،تعالى، للإنسان المطيع الملتزم من نعم في الآخرة، وأن هذه الدنيا هي دار فانية، متعها

---

١ - الإمام الخميني (قده)، الأربعون حديثاً، الحديث التاسع والعشرون، في بيان الصلاة الوسطى، ص٥٥١.

٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٣٦.

مؤقَّتة زائلة، ولا قيمة فيها إلا للعمل الصالح، فإنه سيندفع -نتيجة عماء بصيرته تلك- إلى الاستغراق أكثر من الدنيا، والغفلة عن الآخرة، جاء عن الإمام علي(ع): "ألا، وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنّونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم، ولا منزلكم الذي خلقتم له، ولا الذي دعيتم إليه. ألا وإنها ليست بباقية لكم، ولا تبقون عليها»[١].

٤. اتّباع الشّهوات: وهذا يعود إلى حرص الإنسان على الدنيا وتقوية الجانب المادِّيِّ في حياته وسلوكه وعلاقته، وقياس كلِّ شيء عنده بميزان المنافع والمكاسب الخاصَّة.. إذْ يتحول الإنسان ساعتها إلى مستلَب وتابع ذليل لحاجاته المادِّيَّة وطمعه المادي بالدنيا، فينقص إيمانه وتتراخى التزاماته الدِّينيّة وتضعف توجّهاته الرُّوحيّة المعنويَّة فيه حتى يغفل عنها ويغطّ في سبات عميق، فتبعده عن صراط الله المستقيم ونهجه القويم، جاء عن الإمام علي(ع): "ليس في المعاصي أشدّ من اتّباع الشهوة، فلا تطيعوها فيشغلكم عن ذكر الله»[٢]. وجاء عن الرسول الكريم(ص) أنه قال: "إيّاكم وفضولَ النظر، فإنَّه يبذر الهوى، ويولّد الغفلة»[٣].

٥. العشرة السّيئة: قلْ لي: من تعاشر أقول لك من أنت؟.. فمعاشرة

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٤، ص٢٤٨.
٢ - الآمدي، غرر الحكم، ص١٩٠.
٣ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٩، ص ١٩٩.

الناس السيئين المنافقين والاعتياد على مجالس أهل الفتنة والفسق والفجور، كلُّه سيورثك الغفلة عن الله، ويبعدك عن معاني الحقِّ والدين، يقول الإمام علي(ع): «وإنَّ أهل الدنيا أهل غفلة»[١]. و«المرء على دين خليله وقرينه»[٢] كما قال النبيّ الكريم(ص).

خامسًاً: نتائج الغفلة وعواقبها

للغفلة عن نهج الله والحقّ ،تعالى، والابتعاد عن الدّار الآخرة نتائج خطيرة على صعيد حياة الإنسان المتغافل، منها:

١. العذاب الإلهي: ﴿إِنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يونس: ٧-٨].

٢. قساوة القلب: جاء عن الإمام الصادق(ع): «وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب»[٣]. وقال(ع): «من غلبت عليه الغفلة مات قلبه»[٤].

٣. فساد الأعمال: يروى عن الإمام علي(ع): «إيّاك والغفلة، والاغترار بالمهلة، فإنّ الغفلة تفسد الأعمال، والآجال تقطع الآمال»[٥].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٦.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٧٥.
٣ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٩٣.
٤ - الآمدي، غرر الحكم، ص٢٦٦.
٥ - الآمدي، غرر الحكم، ص٢٦٦.

٤. رأس كلّ بليّة: عن الإمام الصادق(ع): «الغفلة مصطاد الشيطان، ورأس كل بليّة، وسبب كل حجاب»[١].

٥. عمى البصيرة: جاء عن الإمام علي(ع): «دوام الغفلة يعمي البصيرة»[٢].

٦. تسلّط الشيطان: إنّ التغافل عن ذكر الله يؤدي حكماً إلى عبودية الشيطان وتسلطه على الناس، يقول ،تعالى،: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[الزخرف: ٣٦].

سادسًا: طرق معالجة أسباب غفلة الإنسان

ذكر القرآن عدة خطوات يجب على الإنسان المتغافل أن يعالج نفسه بها، حتى يعود عن غفلته ونسيانه نهج الرحمن، وهي:

المعرفة بالغاية التي خلق الإنسان لأجلها: فالإنسان خلقه ،تعالى، لكي يقيم حكم العدل والإنسانيَّة وينفتح على الله ،تعالى، والسعي للقائه، وهذا مرهون بعدم استغراقه في ملذات الدنيا وشهوات النفس الأمارة بالسوء، يقول ،تعالى،: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي**﴾[طه/٤١]، وللقائه ومشاهدة آياته ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾[الرعد: 2]، ولدخول جنته ﴿**وَادْخُلي جَنَّتي**﴾[الفجر: ٣٠].

٢. ذكر الموت: جاء عن الإمام الصادق(ع) قال: «ذكر الموت يميت

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج ١، ص ٣٨٩.

٢ - الآمدي، غرر الحكم، ص٢٦٦.

الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله، ويرقّ الطّبعَ، ويكسر أعلام الهوى، ويطفئ نار الحرص، ويحقّر الدنيا»[1].

٣. معاشرة أهل الصلاح: الذين ورد بشأنهم أنك إذا رأيتهم ذكّروك بالله والآخرة، فقد سئل رسول الله(ص) أيّ الجلساء خير فقال(ص): «من تذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله»[2].

٤. قراءة القرآن الكريم: وهو سلوك إيماني راق يجب الالتزام به، لأنَّه يبعد الإنسان عن الغفلة والتغافل، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾[ق: ٤٥].

● المبحث الثاني: المعتقداتُ الباطلة

تحدّثنا فيما مَضى من مباحث أنَّ منْ أهم الكمالات البشريّة وأرقاها وأعظمها، هو: أن يتحرك الإنسان على طريق الوصول إلى لقاء الله ،تعالى، بحيث يكون الله حاضراً في فكره وسلوكه وحياته، بحيث إنَّه لا يغفل عن ذكره وأن يكون محور حياته ووجوده.. وهذا هو حقيقة مقام العبوديَّة الكامل، مقام اللقاء والشهادة الذي يبقى الإنسان فيه حياً عند ربه، يقولُ تعالى:﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**

1 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص133.
2 - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج12، ص23.

﴿يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: 169]. ولكن هناك موانع وإعاقات عملية قد تمنع الإنسان من الوصول إلى تلك المرتبة الرُّوحيّة العالية، وذلك المقام الرفيع السامي، وهذه الموانع والإعاقات هي: الغفلة عن الحقّ، والعقائد الباطلة المضلة التي يعتقد بها الإنسان، والاستغراق في زخارف الدنيا.. وقد عالجنا سابقاً قضية الغفلة، وسوف نعالج هنا المانع الثاني وهو العقائد الباطلة الفاسدة.

أولاً: صلاحُ الإنسان من صلاح إيمانه وعقيدته

تعرّف العقيدة بأنَّها منظومة فكرية أيديولوجيَّة تحتوي على جملة من القضايا والمسائل التي تشكّل الرؤية الكونيَّة للإنسان حول الكون والوجود والإنسان في علاقاتها وغايتها. والعقيدة هي رؤية مفاهيميَّة يبني الإنسان سلوكه وعمله بناء على أسسها وأركانها، وهي أهمّ ما في حياة الإنسان على الإطلاق، ولا يوجد أهمّ منها، لأنّها تتعلق بطبيعة وجوده في الحياة، وبمعنى هذا الوجود، وبمصيره وبسعادته وشقائه، في دار الدنيا ودار القرار.. فمثلاً، هناك قضية الموت والحياة بعده، تعالجها العقيدة من منظور دينيٍّ.. وتتحدث عن ضرورة إيمان الإنسان بالآخرة والبعث والنشور، وأنَّه إنْ لم يعتقد الإنسان بها، فإنه سيهمل نفسه ووجوده ويتغافل عن حقيقة النعم والمآلات التي وعده الله ،تعالى، بها في الآخرة، فيتصرف وفقاً لأهوائه ومصالحه الجزئيَّة الآنيَّة،

ويجهل معنى وجوده الحقيقيّ، جاءَ عن الإمام علي(ع): «الجهلُ أصلُ كلّ شرّ»[١]..

الثانيًا: كيفَ تؤثرُ العقيدةُ في "كماليَّة الإنسان"؟

عندما يؤمنُ الإنسان بالعقيدة الدِّينيّة، تصبح لها هيمنة على سلوكه وتأثير مباشر في علاقاته مع غيره، وتفاعله مع المحيط الذي يعيش فيه، وحتى على مصيره، ومقامه عند ربه، وعلى درجة قربه منه، عزَّ وجلَّ. والإيمانُ بالآخرة جزءٌ لا يتجزأ من العقيدة، فإذا آمن الإنسان بها وأنَّه راحل عن هذه الحياة إلى حياة أعظم وأبقى وأضمن، فسوف ينطلق ويتحرك ساعياً لتمكين حياته الدنيا بالاستناد لما يرضيه ،تعالى،، يقول تعالى: **﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولِئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾**[الإسراء: 19]..

ومن كانَ يعتقدُ بأنّه ،تعالى، هو المحرّكُ الجوهري لهذا الكون وهو المؤثر الحقيقيّ في هذا الوجود والعالم **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾**[ق: 16]، وأنه ،تعالى، هو الرّازق والعاطي، وهو المالك والقادر، وهو المدبّر المسيّر لكلّ شيء؛ **﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ**

١ - الآمدي، غرر الحكم، ص٧٣.

الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[يونس: 31]، فسوفَ يتوكل عليه ،تعالى، ويسلمُ كل أموره وشؤونه له، لأنَّه مدرك في يقينه أنه بين يدي الله ،تعالى، الرحيم اللطيف بعاده.

وأيضاً الإنسان الذي يؤمن بأنه عزَّ وجلَّ حاضر معه في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل مواقع حياته وأينما يمّم وجهه **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[الحديد: 4]، وأنّه، عزَّ وجلَّ، قريب بل هو الأقرب إليه **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[ق: ١٦]، وأنّه يرى كل أفعاله وحركاته وسكناته وتصرفاته في علانيَّته وجهره **﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾**[آل عمران: ٩٨]، فإنَّه لا شك سيخجل ويستحيي من خالقه، ويخشى من فعل المحرمات، ومن ثَمَّ سيبتعد عن كل ما يخالفه ،تعالى.

وأيضاً من يعتقد بأنّ عائد إلى ربه **﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾**[يونس: ٤]، وأنّه كادح إليه كدحاً **﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾**[الانشقاق: ٦]، فإنّه سيفعلُ المستحيلَ كيلالا يتغافل عنه ،تعالى، بل لن يرتاح مطلقاً، ولن يهدأ قبل أنْ يتجهز لهذا السفر الطويل، ويتزود بكل ما يساعده على لقاء محبوبه.. والتزود هو التقوى والعمل الصالح في الدنيا.

ثالثًا: النتائج العمليَّة للاعتقاد الفاسد

وإذا ما عكسناه ١٨٠ درجة، وجئنا بإنسان كافر بالمعتقدات الإسلاميَّة، ولا يقيم أي وزن لأي معيار من معاييرها، ماذا ستكون النتيجة والعاقبة؟!..

حقيقة، لقد أوضح لنا الله، عزَّ وجلّ، أن الإنسان ذا العقيدة الفاسدة الذي يكفر بوجوده ،تعالى، وينفي النبوَّة، ولا يعتقد بالمعاد، ويرى نفسه أهم من أصحاب المقامات المقدَّسة، تنتظره عواقب قاسية ووخيمة، ومنها:

١. العذاب الشديد والأليم: ﴿وَأَنَّ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَليماً﴾[الإسراء: ١٠].

٢. الخسران والندامة: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾[الأنعام: ٣١].

٣. بطلان الأعمال: ﴿وَالَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٤٧].

٤. النسيان: ﴿وَقيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرينَ﴾[الجاثية: ٣٤].

٥. العقابُ الإلهيّ في الدنيا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمينَ﴾[القصص: ٣٩-٤٠].

٦. الحرمان من مغفرته ،تعالى،: ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[محمد: ٣٤].

والجدير بالذكر هنا أنَّ النتائجَ السلبية والآثار والنتائج الوخيمة المترتبة على أصحاب العقائد الباطلة والفاسدة، لنْ تقتصرَ على الفرد فقط، بل ستطال في أضرارها وعواقبها كثيراً من الناس وأبناء المجتمع.. لأنه عندما ينكرُ شخص ما وجود الله ويعتقد أنَّه لا معنى لتهذيب النفس وتزكيتها وتربيتها على قيم الإيمان والدين، وغيرها من الأفكار المضلة والاعتقادات الخاطئة، فإنَّ قناعة وإيمان شخص ما له مركزه ومسؤوليته وتأثيره على غيره، بتلك المعتقدات، سيدفع آخرين للإيمان بما يؤمن والاعتقاد بما يعتقد، وهذا كله بالمحصلة سيؤثر في إيمان الناس ويصدهم عن سبيل الله، ويحرفهم عن طاعته، ويمنعُ الخير عنهم، ﴿**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾[القلم: ١٢]، وهو يحسب نفسه من المتقين والمهتدين إلى جادة الحق والصواب ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[الزخرف: ٣٧]، بينما هو في حقيقة الأمر، إنسان ضالٌّ مضلٌّ ﴿**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**﴾[إبراهيم: ٣]. يقول تعالى في نهي الصدِّ عن سبيله ،تعالى: ﴿**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً**﴾[الأعراف: ٨٦]، ﴿**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ**﴾[الأعراف: ٤٤-٤٥].

رابعًا: كيفية علاج أصحاب المعتقدات الفاسدة

بعد أنْ يعرف المرء التأثير السيء للعقائد الفاسدة على سلوك ووعيه ومسؤوليته في الحياة الدنيا، ومن ثَمَّ على مصيره في الحياة الآخرة، يجب على الإنسان الناظر للآخرة أن يفكر كثيراً في الطريقة التي تخلّصه من تلك الشكوك والشبهات المرتبطة بالعقيدة، والتي تقف حائلاً أمام غايته في السعي للتقرب إلى الله، ولا طريقة أحسن وأسلم وأضمن من التعرف إلى أسس هذا الدين العظيم، وتعلم مبادئه السامية ومنظومته العقائدية على أصولها.. فهذه المعرفةُ تضمنُ له أنْ يعي دوره وموقعه في الحياة، فيستهدي بالله في كلِّ شيء، بما ينجيه ويعصمه من الوقوع في المهالك والذنوب والآثام.. طبعاً العلم والتعلم لا يكفيان، فلا بدّ أنْ يقترنَ الوعي بالممارسة والسّلوك والتطبيق، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: ٣].. والعلمُ لا يترسّخُ إلا بالعمل، يقولُ النبيّ الكريم(ص): "العلمُ يهتفُ بالعمل، فإنْ أجابه وإلّا ارتحلَ عنه»[١]..

وللتّعلّم آدابٌ يجبُ التقيّد بها ومراعاتها:

أنْ يعي أنَّ كلَّ ما يعلمه قليل ولا يقاس بما لا يعلمه، وأنْ يشكِّل هذا الأمر دافعاً قوياً لديه لمزيد من العلم والتعلم.

الإقرار بوجود كثير من الاحتمالات لوجود وشيوع الأفكار الخاطئة

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٣٣.

والآراء الفاسدة، جاء عن الإمام علي(ع): «اتّهموا عقولكم، فإنّه من الثّقة بها يكون الخطأ»[١].

إخلاص النية وصدق السبيل والمسعى في طلب العلوم والمعرفة الإلهيَّة.. وهذا يعني ضرورة توجه الإنسان إلى الله ،تعالى،، والتوكل عليه، والامتثال لأمره، والعمل على إصلاح النفس، جاء عن الإمام الصادق(ع): «من تعلّم لله، عزَّ وجلَّ، وعمل لله، وعلّم لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً»[٢].

التشارك في الآراء وتبادل وجهات النّظر بعيداً عن التزمت وحب الذات والعناد، فهذه أمور مُهمَّة لتصحيح العقيدة، جاء في وصيّة من وصايا الإمام علي(ع): «اضربوا بعض الرأي ببعض يتولّد منه الصواب»[٣]، وعنه(ع): «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[٤]، وعن الإمام الصادق(ع): «من تعلّم العلم ليُماريَ به السفهاء، أَو يباهي به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه ليرئّسوه ويعظّموه، فليتبوّأ مقعده من النار»[٥].

التدقيق وعدم الإسراع في تقييم الأشياءَ إعطاء الآراء وإبداء وجهات النظر، بل يجب التمهل والانتظار حتى تتضح ملامح الأمور وتتبلور الأفكار.. يقول

---

١ - الآمدي، غرر الحكم، ص٥٦.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٣٥.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص ١٠٢٤.
٤ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٢٩.
٥ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٣١.

الإمام علي(ع): «الرأي مع الأناة»[١]، وجاءَ في وصية الإمام علي(ع) لولده الإمام الحسن المجتبى(ع): «أنهاك عن التسرّع في القول والفعل»[٢].

الدّعاء وطلب العناية منه، عزَّ وجلَّ.

● المبحث الثالث: الرضا بالحياة الدنيا

إنَّ الإنسان المؤمن الصادق في إيمانه، والباحث عن سعادته في الآخرة، ونيل رضاه ،تعالى، لا يمكن أن يتحقق سعيه هذا من دون وجود نية صادقة لديه تكون خالصة لوجهه الكريم، عزَّ وجلَّ، ومن دون أن يقطع كل الموانع والإعاقات التي تقف حائلاً دون التوجّه والانقطاع إليه ،تعالى،.. ومن أهم هذه الموانع، الرضا بالعيش الدنيويِّ الزائل.

أولاً: الاستغراق في الدنيا واعتبارها المنتهى

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[يونس: ٧-٨]. توضح لنا هذه الآية الكريمة أنَّ اكتفاء الإنسان ورضاه وقناعته بالحياة الدنيا، والركون إليها، قد تكون طريقاً ودافعاً لدخول نار جهنم.. لأنَّ هذا الركون والرضا بالدنيا يكشف لنا عن

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص ٨١.

٢ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٦٧.

تغافل الإنسان عن الدار الآخرة، وما يتصل بها من تكاليف واجبة التنفيذ في الدنيا..

وهناك كثير من الآيات الواردة في القرآن التي تحذر من مغبة الاستغراق في الدنيا ونسيان الآخرة، بما يفضي إلى الانحراف عن جادة الحق والصراط المستقيم، يقول عزَّ وجلَّ ﴿**وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**﴾[إبراهيم: ٢-٣]، وقوله عزّ اسمه: ﴿**أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾[البقرة: ٨٦]، وقوله: ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى**﴾[النازعات: ٣٧-٣٩] وقوله: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى**﴾[الأعلى: ٦-١٧].

وجاء في رواية عن الإمام علي(ع) عن الرسول(ص) في خبر المعراج، قال: «قال الله، تبارك وتعالى،: يا أحمدُ! لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض، ويصوم صيام أهل السماء والأرض، ويطوي عن الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العابدين، ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سمعتها أو رئاستها أو صيتها أو زينتها، لا يجاورني في داري، ولأنزعنَّ منْ قلبه محبتي، ولأُظَلِّمنّ قلبه حتّى ينساني، ولا أذيقه حلاوة محبتي»[1].

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٣٦.

وعن إمامنا الصّادق(ع) في تفسير قوله ،تعالى،: ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ قال: "هو القلب الذي سلِم من حبّ الدنيا"[١].

وعن الإمام عليّ(ع) قال: «إن كنتم تحبّون الله فأخرجوا من قلوبكم حبّ الدنيا»[٢]. وعنه(ع) أيضاً: «إنّك لن تلقى الله، سبحانه، بعملٍ أضرُّ عليك من حب الدنيا»[٣].

وعن الإمام الصادق(ع) قال: «في مناجاة موسى(ع): يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبة، عاقبتُ فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان فيها لي. يا موسى إنّ عبادي الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم، وما من أحد عظّمها فقرّت عيناه فيها، ولم يحقّرها أحد إلا انتفع بها"[٤].

ثانيًا: أصل منشأ حب الدنيا والتعلق بها

ما سبب تعلق الإنسان بالحياة الدنيا؟ لا شك أنَّ للدنيا مغريات، وفيها ملذات تفتح الشهوات البشريّة، ويعود جذر استغراق الإنسان فيها إلى عاملين اثنين:

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٤٠.
٢ -الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٤٠.
٣ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٤١.
٤ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص ٣١٧.

أولهما: اعتقاد الإنسان أنَّ الدنيا هي ملاذُه الأخير وهي دار سعادته.

وثانيهما: جهله بطبيعة ما في الدنيا وعدم معرفته بحقيقتها التي قدمتها نصوص الدين.

إنَّ جهل الإنسان بحقيقة الدنيا في كونها دارَ زوال وساحةَ اختبار وفتنة للعمل، وأنها فانية بأمر الله ،تعالى، ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ**﴾[سورة الرحمن: ٢٦]، هو ما يدفعه للدخول في أبواب الحرام والإسراف في حياته بما لا يرضيه ،تعالى،.. لهذا رأينا كيف تحدث الدين عن أن بغض الدنيا هو من أفضل الأعمال، كما ورد عن رسول الله(ص): «ما من عمل أَفضل عند اللَّه بعد معرفة اللَّه، ومعرفة رسوله، وأَهل بيته من بغض الدنيا»[1].

لهذا يجب على الإنسان أن يعلم ويدرك أن الآخرة هي أصل الحياة الأبدية الخالدة التي لا تتيسر إلا للمؤمنين العاملين في خط الإيمان والإخلاص لله ورسوله، والاستغراق في هذه الحياة الدنيا التي هي حياة فانية زائلة كما يقول ،تعالى،: ﴿**قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَليلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى**﴾[سورة النساء: ٧٧]، لن يحقق له غايته الجوهرية في الخلود الأُخْرويّ..

وكون الدنيا هي دارًا فانية لا يعني أنَّه لا قيمة لحياة الإنسان فيها، فهي جسر العبور للآخرة، ويجب أن يعمل فيها بوعي ومسؤوليَّة محققاً لرضا رب العالمين.. إنها مقدّمة للحياة الحقيقيَّة الخالدة في عالم الآخرة، ولهذا

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٣٦.

لا بد من البناء والزراعة هنا حتى يتمّ الحصاد هناك في الآخرة، جاء عن النبيّ عيسى(ع): «بحق أقول لكم: إنّ الدنيا خلقت مزرعة يزرع فيها العباد الحلو والمرّ والشر»[١]. وجاء عن الإمام علي(ع): "إنمّا الدنيا دار ممرّ والآخرة دار مستقَرّ، فخذوا من ممرّكم لمستقرّكم»[٢].

وعندما يدرك الإنسان حقيقة الدنيا كما حدَّدتها نصوص الدين في كونها دار عبور ومزرعة للآخرة، فلن يتخذ موقف العداء الجذري منها، بل سيدرك أنَّه كلما طال بقاؤه فيها، كان قادراً أكثر على السعي للوصول إلى الكمال وإنجاز الكثير من الأعمال الصالحة..

والروايات والأدعية التي وردتنا عن أئمَّة أهل البيت(عليهم السلام) تحدثنا عن أنهم(ع) كانوا يطلبون من الله ،تعالى، أن يطيل أعمارهم فقط لكي يعبدوه أكثر ويتقربوا إليه أكثر.. فهم كانوا مدركين تماماً لحقيقة هذه الدنيا، وأنها وسيلة لنيل رضا الله وسعادة الآخرة، فحسبُ.. وهناك كثير من الروايات بهذا الشأن مثل هذا الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة"[٣] الذي يشير إلى حقيقة أنّه ينبغي على الإنسان أن يتحرك في دنياه عاملاً باستقامة وحكمة ومسؤولية رساليَّة لكي تتحقق له السعادة الدائمة في الآخرة، بما يعني أنه (أي الحياة الدنيا) ممر وطريق إجباري للنجاة نحو آخرة مضمونة

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ص ٣١٢.
٢ - الآمدي، غرر الحكم، ص١٤٩.
٣ - المحقق الإحسائي، عوالي اللآلي، ج١، ص٢٦٧.

بلقاء الله ،تعالى، والوصول لنيل رضاه وتحقق السعادة الأبدية الخالدة المرهونة كما قلنا بالعمل الصالح في الدنيا.. وهذه هي الحالة الوحيدة التي يتمنى الإنسان المؤمن أن تطول فترة بقائه في هذه الدنيا، كي يستمر في أداء فروض الطاعات لله ،تعالى،.. أمّا تمنّي الموت من قبل أولياء الله كما يتحدث الإمام علي(ع): «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه»[١]، فهو يأتي من باب أنهم يتشوقون للقاء محبوبهم بعد الموت، حيث فصلتهم الدنيا عنه، وهو مانع لا يزول ولا يرتفع إلا بالموت.. وهذا لا يتنافى مع طلبهم البقاء، والدوام في هذا العالم، كما ذكرنا.. فالمقصود الأصليُّ للإنسان هو النعم الأخرويّة والكرامات الإلهيَّة ورضا الله ،تعالى.

ثالثًا: الدنيا بين المدح والذمِّ

جاءَ عن إمامنا الصادق(ع): «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»[٢]. وليس المراد من مصطلح "الدنيا" الوارد في هذا الحديث، حبّ الدنيا بما فيها من طبيعة وجبال وبحار وأشجار وأنهار وغيرها، أو محبة الناس، بل المراد من ذم الدنيا هنا هو ذم الارتباط بقبائح الدنيا ورذائلها، والتعلق القلبيّ الشديد بكل ما يمنع من الوصول إلى الكمال والسعي للقاء الله، وارتقاء الإنسان وسفره نحو الآخرة والحق.

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٨، ص٢٣٤.

٢ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٦، ص٩.

فهذا التعلُّق بالدنيا وملذَّاتها سيودي بالإنسان إلى المهالك، ويلقيه في الحرام، ومن ثَمَّ سيمنعه من التوجه لله ،تعالى، وهذا هو الأمر القبيح والمدان.. جاء في الحديث: "يا عيسى.. واعلم أَنّ رأس كلّ خطيئة وذنب هو حبّ الدنيا فلا تحبها، فإني لا أحبها"[١]. فمحبة الآخرة ومحبة الدنيا لا يمكن أن تجتمعا في قلب رجل مؤمن، يقول الإمام علي(ع): «كما أَنّ الشمس والليل لا يجتمعان، كذلك حبّ اللَّه وحبّ الدنيا لا يجتمعان»[٢].

جاء عن الإمام السجاد علي زين العابدين(ع): «الدنيا دنياوان: دنيا بلاغ[٣]، ودنيا ملعونة»[٤]. فليس طلب مطلق الدنيا وطيّباتها حراماً ومذموماً ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف: ٣٢]، وذات يوم جاء رجل إلى الإمام الصادق(ع) وقال له: «إنّا لنطلب الدنيا، ونحبّ أن نؤتاها، فقال: تحبُّ أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأَصِلُ بها وأتصدّق، وأحجّ وأعتمر، فقال أبو عبد الله(ع): ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص ١٣١.
٢ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٢،ص٤٢.
٣ - بلاغ: أي بقدر ما يبلغ به إلى الآخرة.
٤ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٣١.

الآخرة"[١]. كما ورد في نهج البلاغة أنّ رجلاً ذمّ الدنيا في محضر الإمام علي(ع) فعارضه الإمام(ع) بشدّة قائلاً: «أيّها الذامّ للدنيا، المغترّ بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغترّ بالدنيا ثم تذمّها؟ - إلى أن قال -: إنَّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلّى ملائكة الله ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله...»[٢].

نعم، الدنيا ليستْ محلّ ذم في ذاتها، بل بحسب سلوك وتصرف الإنسان فيها، وعلاقته بما فيها من أفكار وأناس وعلاقات وغيرها.. فإذا أقام حياته وعلاقاته الدنيويَّة على مقومات التقوى والإيمان الصحيح، فهي دنيا محمودة، أما إن انشغل في حياته الدنيا بالملذات والفساد والإفساد، فهي دنيا مذمومة.. بما يعني أن الذمّ يتوجّه أوّلاً إلى سلوك الإنسان وعلاقته بالدنيا. يقول تعالى: **﴿الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾**[الأعراف: ٥١].

وهناك أمر آخر يذمُّه الدين في الحياة الدنيا؛ هو الإسراف في طلب حلالها بلا ضوابط ولا معايير ولا رقابة أو ضوابط دينية شرعية، بحيث إنَّ هذا سيضرّ بواجباته تجاه ربه، يقول تعالى: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفينَ﴾**[الأعراف: ٣١]، **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فيهِ**

١ - الشيخ الكليني، أصول الكافي،ج٥، ص٧٢.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار،ج٧٠، ص١٠٠.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى﴾[طه: ٨١].

إنّ الأساس في قضية الحياة الدنيا، هو الإفراط في طلبها، والاستغراق في مفاتنها وزينتها، فهو منشأ كل انحراف وضلال.. وهذا ناجم للأسف عن الجهل وقلة البصيرة الإيمانيَّة وضعف التربية الدِّينيّة الحقيقيَّة.. لأنّ الإنسانَ لو علم وأدرك -عن وعي ومسؤولية- أنَّ هذه الدنيا ليست دار بقاء، بل هي دار فناء، ﴿وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾[النجم: ٤٢]، لما تعلّق قلبه بالدنيا مطلقاً.

من هنا نجد الإشكاليَّة لا تكمن في "الحياة الدنيا"، بل في طريقة التعاطي مع ما فيها من عروض ومغريات، أيْ في كيفيّة التعامل معها والاستفادة مما فيها على طريق الخير والصلاح والإيمان الحقيقيّ وعدم الركون إليها، أو الإخلاد والرّضا بها، فهذا هو الضرر والمشكلة الأساس، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[الأعراف: ١٧٦]. لذا يسأل الله، عزَّ وجلَّ، البشر: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَليلٌ﴾[التوبة: ٣٨]!!!

رابعًا: طريقة التخلُّص من مرض التعلق بالدنيا والإخلاد إليها

تُعدُّ الدنيا إذاً مشكلة عندما تكون هي الغاية والمنتهى، فهي عندئذ:

«المهلكة طلابها، المتلفة حُلاّلها[١]، المحشوّة فالآفّات، المشحونة بالنكبات»[٢]، كما قال الإمام علي زين العابدين(ع)، ولهذا يكون علاج هذا المرض من خلال السبل الآتية:

السبيل الأوّل:

أنْ يعرفَ الإنسان أنَّ الدنيا ستزول بأمر الله ،تعالى، وأنَّ البقاء للآخرة، فهي مستقرُّ الخلود، يقول تعالى: ﴿**وَما أُوتيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[القصص: ٦٠]، والأكثر أهمِّيَّة مما تقدَّم، هو أن يعلم ويدرك المآلات والآثار السلبية المترتِّبة على الاستغراق في الدنيا والتهاون في التزاماته الدِّينيّة فيها.

السبيل الثاني:

الذكر المستمرُّ للموت علاج أساسيّ للتخلص من مرض الإخلاد للدنيا، لأنَّ الموت هو حقيقة الحقائق، وأرسخ برهان على أنَّ الإنسان غير مخلَّد في هذه الأرض، وأنَّه خُلق لغيرها وليس لها، جاء في رواية عن إمامنا محمد الباقر(ع) أنّ أحداً سأله أنْ يحدثه بما ينتفع به، فأجابه الباقر(ع): «يا أَبا عبيدة: أَكثر ذكر الموت، فإنه لم يكثر إنسان ذكر الموت

---

١ - حلاّلها: أي نزّالها.

٢ - الإمام زين العابدين (ع)، الصحيفة السجادية: مناجاة الزاهدين، ص ٤٢١.

إلا زهد في الدنيا»[١].

السبيل الثالث:

وينقسم قسمين، أولهما: ضرورة تصحيح النظرة الحقيقيَّة عن الدنيا، وأنها مدة زمنية قصيرة، والخلود للحياة الأخرى في دار القرار والمستقر النهائيّ.. وثانيهما: اكتشاف طبيعة العلاقة الواقعيّة الحقيقيَّة بين الدنيا والآخرة، من خلال إجراء نوع من المقارنة بين الدارين، وذلك لكي يعيَ الإنسان أنَّ الدنيا والآخرة، وسيلة وغاية، وأنَّ الدنيا هي جسر وممر، فحسبُ، والآخرة هي الأبقى، جاء عن الإمام علي(ع) أن الدنيا: «دار ممرّ لا دار مقر"[٢].

● المبحث الرابع: الذنوب- اتباع الهوى

أولاً: حجابُ الذنب والمعصية

إنَّ الهدف السامي والغاية الكبرى من وجود الإنسان تكمن في أنْ يصل إلى مقام العبوديَّة الحقيقيَّة من خلال ارتباطه الوثيق بالله ،تعالى، خالق الوجود والحياة، بما يستلزمه هذا الارتباط من إيمان وفعل وعمل وسلوك.. ولهذا جاء الأنبياء ونزلت الكتب السماوية.. ولكنَّ عصيان

١ -الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٣١.
٢ - نهج البلاغة، ج٤، ص ٣٣.

هذا الإنسان ربَّه من خلال استغراقه في الدنيا، هو ما يمنع من تحقيق ذلك الهدف العظيم للمسيرة البشريّة، ووصول الإنسان لمرتبة الخلافة ومقامها الرفيع ﴿**إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة: ٣٠].. لهذا كانت منظومة الشريعة في أحكامها ومعاييرها وضوابطها كبرنامج عمل يجب على الإنسان أنْ يسلكه ويلتزم به ليتجنب الوقوع في المهالك والشهوات الدنيويَّة الزائلة، لتتفتَّح بعدها استعداداته الكامنة نحو الخير المطلق والجمال اللامتناهي. ففي الحديث القُدُسيِّ أنّ الله ،تعالى، قال: "يا بن آدم: أنا غنيّ لا أفتقر، أطعني فيما أمرتك أجعلْك غنياً لا تفتقر، يابن آدم أنا حيّ لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلْك حيّاً لا تموت يا بن آدم: أنا أقولُ للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون"[1].

إنَّ وجود برنامج تربوي قيمي إسلامي كهذا، يستمد بنوده من الشريعة، ويستهدف بالأساس تنظيم علاقة الإنسان المؤمن بدنياه، من خلال تنظيم وضبط شهواته وقواه الجوَّانيَّة معها.. كما يهدف إلى إظهار أهم مواقع الجمال في النفس الإنسانيَّة من خلال العبادة والطاعة والتزام حدوده، تعالى، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾[البقرة: ٢٢٩].

---

١ -محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٧٦.

ثانيًا: النتائج السلبية لارتكاب المعاصي والذنوب

من أهم نتائج الذنوب في تجسيداتها السلبية، أنها هي السبب في:

كدورة القلب وظلمته: وانسداد باب الفيض الإلهيِّ عنه، فعن الإمام الباقر (عليه السلام)أنّه قال: "في القلب نكتة بيضاء، فإذا أذنب العبد خرج من تلك النكتة نقطة سوداء، فإذا تاب العبد زال ذلك السواد، وإذا تمادى في الذنوب زاد السواد حتى يغطي القلب كله، وعندها لا يعود صاحبه إلى خير أبداً. ثمّ تلا قوله ،تعالى،: ﴿**كَلَّا بلْ ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾"[1].

دخول النار: يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فيها وَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ**﴾[النساء: ١٤].

عدم تقبّل الحقائق الإلهيَّة: يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذينَ أَساؤُوا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ**﴾[الروم: ١٠].

قسوة القلب: جاء عن الإمام علي(ع): "ما جفّت الدموع إلَّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلَّا لكثرة الذنوب"[2].

الحرمان من الخيرات: جاء عن إمامنا الصادق(ع): "إنَّ الله قضى قضاء حتمًا ألَّا ينعم على عبد بنعمة فيسلبها إياه حتّى يحدث العبد ذنباً

---

١ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج٢،ص٢٧٣.

٢ - العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٧، ص ٥٥.

يستحقّ بذلك النقمة"[١].

تسلّط الأعداء على الإنسان: يُروَى عن الصادق(ع): "يقول الله، عزَّ وجلَّ: إذا عصاني من عرفني، سلّطت عليه من لا يعرفني"[٢].

ثالثاً: كيفيَّة علاج المعصية وعدم ارتكاب الذنوب:

إنَّ من يعصي الله ،تعالى، يكون كمن يرفض رحمة الله ويقول له (والعياذ بالله): لا أريدك..!!. والسبب في هذا يكمن في الذنوب والآثام والخطايا التي يقع فيها الإنسان، فهي التي تحول بين بينه وبين عبوديَّة ربه، ومعرفته معرفة حقيقيَّة.. ولهذا ينبغي التنبه إلى ضرورة ترك الذنوب والتوجُّه المخلص له ،تعالى، يقول الإمام علي(ع): "إنَّ تركَ الذنبِ أهون من طلبِ التّوبة"[٣].. وتركها يأتي بالعمل الصالح والتوبة النّصوح، فاللهُ ،تعالى، توابٌ رحيم، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[الأعراف: ١٥٦]، ﴿**قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ**﴾[سورة الزمر: ٥٣].

---

١ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج٢،ص٢٧٣.
٢ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج٢، ص٢٧٦.
٣ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٦٤.

رابعًا: حجابُ الذّات والاستغراق في محبة النفس

يعني الهوى الميل القلبيّ نحو شيء ما تحبّه النفس وترغب به إلى حد التعلق الكامل، مع اشتهائه باستمرار.. أما هوى النفس فيعني حبّ الذات والنفس واتباع أوامرها والخضوع لمتطلباتها بدلاً عن الخضوع لتعاليم الدين وأوامر الله ،تعالى، يقول تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْديهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾[الجاثية: ٢٣].

خامسًا: النتائج السلبية المترتِّبة على اتّباع هوى النفس

لعل أهم نتيجة سلبية يصل إليها الإنسان نتيجة هواه النفسيِّ وخضوعه لنزعاته الذَّاتيَّة، هي أنه ينحرف عن الصراط المستقيم، يقول تعالى: ﴿**وَإِنَّ كَثيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدينَ**﴾[سورة الأنعام: ١١٩]. إنَّه الضلال والابتعاد عن الله والصد عن سبيله ،تعالى، جاء عن الإمام علي(ع): "إنمَّا أَخاف عليكم اثنتين؛ اتّباع الهوى وطول الأَمل، أَما اتّباع الهوى، فإنه يصَّد عن الحق، وأَمّا طول الأَمل فينسي الآخرة"[1]. لهذا جاء أمر الله عزَّ وجلَّ حاسمًا وواضحاً بضرورة ترك الهوى وتجنّب الخضوع لها، وعدم طاعتها، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى**

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢،ص ٣٥٥.

فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾[1].

سادسًا: كيفيَّة علاج مرض هوى النفس

إن الإنسان المؤمن الملتزم بتعاليم ربه ونهج شريعته، تكفيه معرفة سلبيات ومساوئ عبادة النفس والخضوع لهواها، وتكفيه معرفة ما وعد الله عباده المؤمنين حتى يتركوا هوى النفس ويقلعوا عنه: **﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾**[النازعات: ٤١ – ٤٢]. ولا علاج أهم وأضمن وأنجع من رفض هوى الذات والإحجام عن تلبية متطلبات النفس، والخضوع لأحكام الدين وقيمه ومبادئه الشرعية في كافة مواقع الحياة الخاصَّة والعامَّة، يقول تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولِئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ﴾**[المائدة: ٤٤]، وعن الإمام علي(ع): "خالفْ نفسَك تستقمْ"[2].

إذاً، نصل إلى النتيجة، وهي أن مخالفة هوى النفس، وإشغال المرء نفسَه بالطاعات والواجبات الدِّينيّة من صلاة وعبادة ودعاء وغيرها، هو السبيل الوحيدة للوقاية من السقوط في براثن الهوى وهيمنة القوى الشهويَّة والغضبيَّة على الإنسان..

---

١ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ص ٢٦.
٢ - الآمدي، غرر الحكم، ص٢٣٧.

الفصل الثاني عشر

تهذيبُ النّفسِ هو مفتاح إصلاح الإنسان

● المبحث الأول: ألدُّ الأعداء

إنّ نفسَ الإنسان، وهواها وطبائعها المتغيرة، هي من أخطر موانع تكامل الإنسان ووصوله إلى مرتبة ومقام العبوديَّة الحقيقيَّة لله ،تعالى، والتقرب من الحق، عزَّ وجلَّ، جاء عن النبيّ الكريم(ص): «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[١]. وما يقصده الرسول هنا من النفس، النفس الأمَّارة بالسوء التي تدفعُ صاحبها للسقوط في وديان المعصية وارتكاب الذنوب والآثام، بما يمنعه من التكامل الرُّوحيّ والأخلاقيّ ونيل رضاه ،تعالى.. ويصف الإمام عليٌّ، زين العابدين(ع) هذه النفس في شكواه ومناجاته لربه قائلاً: "إلهي! إليك أشكو نفساً بالسّوء أمّارة، وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرّضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك كثيرة العلل، طويلة الأمل»[٢].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٧، ص٦٤.

٢ - الإمام زين العابدين (ع)، الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.

● المبحث الثاني:
ماهيَّة "النفس الأمّارة" وحقيقتها الأوليَّة

يقول الله ،تعالى، في كتابه العزيز: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فى أَحْسَنِ تَقْويمٍ**﴾[التين: ٤]. وهو يعني أنَّ هذه النفس البشريّة التي منحها الله لكل إنسان هي في حد ذاتها جوهرة طاهرة خاليةٌ من أيِّ دنس وخبث في تكوينها الذاتيِّ الأوّلي، ولكن حال تعلقها بواقع المادَّة والحياة، واستغراقها في عالم الطبيعة العضوية الماديَّة على نحوٍ أكثر من اللازم والمسموح، فإنَّها سرعان ما تبدأ بنسيان الحياة المعنويَّة والرُّوحيّة، لتخلد إلى الدنيا وتتثاقل في الأرض، فتتلوث بالمعاصي والخبائث وكل الأخلاقيّات السيئة، من طمع وجشع وتكاذب ونفاق وحرص على الهوى والمنافع الخاصَّة وتحصيل اللذات والمتع الزائلة، لتكون نتيجة كل تلك الارتكابات أن ينحدر الإنسان الغائص في ماديته، إلى أسفل سافلين ﴿**ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلينَ**﴾[التين: ٥]، ورغم أن الله، تعالى، قد يرفع هكذا إنسان إليه مجدداً، ويقربه منها مرة أخرى، إذا ما تابَ توبةً نصوحة وأخلصَ لله، ولكنه للأسف سيمضي في إخلاده للدنيا.. لأنه أضلّ نفسه وغَرق في شهواتها، فلا فائدة عندها من أي وعظ وإرشاد وهداية: ﴿**وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾[الأعراف: ١٧٦].

هذا كله يعني ويفيدُ بأنّ المشكلة الحقيقيَّة والجوهرية للنفس تتركز وتتمحور في تمسكها بالدنيا، واستغراقها في مستنقعات الشهوات والملذات، وما ينجم عنه من ارتكاب المعاصي، ومخالفة أحكام الدين، يقولُ ،تعالى،: ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ الله**﴾[ص: ٢٦].. واتباع الهوى يضل عن سبيل الله، لأنَّ النفس الشهوانية عندها تصبح هي الآمرة والناهية، وتكون كالإله في خضوع الإنسان لها، يقول ،تعالى،: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواه**﴾[الجاثية: ٢٣]..

● المبحث الثالث:
لا علاج من دون جهاد النفس وتزكيتها

إن علاج النفس الأمارة بالسوء يكون مجدياً فقط من خلال اتباع سبيل المجاهدة للتخلص من سلطتها وهيمنتها على الإنسان.. وهي مجاهدة تقوم على رفض تنفيذ طلبات ومغريات هذه النفس، ومواجهتها بالعبادة والصبر والعمل التقويّ الصالح، وذلك من أجل تنقية هذه النفس من الخبائث وتصفيتها من شوائب الشهوات، لكي تصبح مؤهلى لتلقي إشراقات الروح والفيوضات الإلهيَّة، فطهارة النفس والقلب شرط الارتقاء في سلم الكمال والقرب من الله ،تعالى، الذي يقول: ﴿**ولكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[المائدة: ٦]. ويقول ،تعالى، أيضاً: ﴿**يا أَيُّهَا**

الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيهِ﴾[الانشقاق: ٦]. فالمجاهدة التي هي سير متعب وشاق وكدح نحو الله، لتزكية للنفس، بهدف تحقيق غاية اللقاء والقرب منه ،تعالى،، مرهونة بالتحرر من هيمنة أغلال الحياة الماديَّة.. يقول تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**﴾[الشمس: ٧-١٠]. وفي آيةٍ أخرى يذكر عزَّ وجلَّ المجاهدة والتزكية كهدف أساسيّ من إرسال الرسل: ﴿**هُوَ الَّذى بَعَثَ فِى الْأُمِّيّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفى ضَلالٍ مُبينٍ**﴾[الجمعة: ٢].

إن منهج الجهاد النفسي (المجاهدة ضد النفس الشهوانية) يختصر بسلوكين:

التخلّي: التخلي عن هوى النفس والأخلاق السيئة التي تريد النفس الشهوانيَّة فرضها من خلال التعلق بحب الدنيا في ملذاتها وزخارفها.

التحلّي: ويعني تحلية النّفس بالقيم والخصائص الحَميدة والأخلاق الإلهيَّة.

● المبحث الرابع: تركُ الرَّذائل والأخلاق السّيئة

لا يوجد إنسان على هذا البسيطة إلا وهو عرضة للخطأ والتلوث بالمستنقعات الدنيويّة بمختلف شوائبها ونقائصها الحياتيّة، وقد يزداد أو

يتناقص مقدار هذا التلوث بحسب مدى تعلق الإنسان بالحياة الدنيا وغفلته عن الآخرة. وسبيل التخلص من تلك الملوثات والرذائل وعدم ورود مستنقعاتها العفنة، هو التخلي عنها والانكباب على مجاهدة الذات وتربيتها إيمانيّاً.. فالتربية الدِّينيّة تقوم -في هذا المسعى- على تعميق النظرة الرفضية لكل ملذات الدنيا، من حيث أنها متع وملذات زائلة وزخارف ناقصة محدودة.. وأن البقاء هو لنعم الله المستمرة والخالدة في دار البقاء والمستقر الأخير في الآخرة.

إنَّ تعلق قلب الإنسان بالدنيا هو أساس المشكلة الاجتماعيَّة والحياتيّة، فمن خلال هذا التعلق تنشأ صفات سيئة وتتصاعد في ممارستها سلوكياً، أي تتمظهر وتبرز أخلاق الرذيلة من الغضب والكره والحقد والتعصب وسوء الظن والطمع والحرص والتكبر والتفاخر وغيرها.. ولهذا يجب على الإنسان الناظر والمتطلع للقاء ربه أن يحارب تلك الصفات في نفسه، ويخرجها من ذاته:

١ - من خلال استئصال جذر نشوء ونمو تلك الصفات السلبيَّة من نفسه، وهو جذر وداء حب الدنيا والتعلق بها، وهذا يتأتى من خلال إعمال الفكر في هذه الدنيا، ودراسة معنى وأصل وجود الإنسان فيها، والتأمل في أنها دنيا غرورة ومحدودة وفارغة، ولا قيمة لأي شيء فيها إلا إذا كان يرضيه ،تعالى،، يقولُ ،تعالى،: ﴿**أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾[سورة البقرة: ٨٦]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿**أَرَضيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَليلٌ**﴾[سورة التوبة: ٣٨].

٢ - التركيز الدائم على الغاية الحقيقيَّة للإنسان، وهي لقاء الله ،تعالى،،

فهو المقصد الأساسيّ: ﴿**مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ**﴾[سورة العنكبوت: ٥]، لهذا يجب على الإنسان أن يتحرك وينطلق في حياته وكل مواقعه تبعاً لإيمانه بذلك الهدف، وهو لقاء الله ،تعالى، وسعيه إليه على طريقه المستقيم.. وعندما يكون هذا الهدف والغاية موضوعاً نصب عينيه، فمن الطبيعي أن يبقى في حالة طوارئ وجهوزية حياتية دائمة، فلا يتغافل ولا يتقاعس ولا يرتكب، ولا يحيد عن غاية اللقاء خطوة واحدة.. يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[سورة يونس: ٧-٨].

٣ - مواجهة الصفات الرذيلة والأخلاق السيئة والسلوكيَّة الذميمة من خلال العمل بأضدادها.. حيث إنَّه من المعلوم أنَّ لكل صفة سيئة مذمومة صفة مضادة لها ومناقضة لمعناها الفكري والعملي، فكفران النعمة ضده الشكر، والتكبر ضده التواضع، والغضب ضده الحلم، والرياء ضدها الإخلاص، والحسد ضده الرضا، والجهل ضده العلم، وهكذا، فأحسن وأنجع علاج لترك تلك الصفات والمفاسد الأخلاقيّة، هو أن يفعل الإنسان نقيضها، كما يقولُ الإمام الخميني: «فإنّ الأسلوب الوحيد للتغلّب على النفس الأمّارة، وقهر الشيطان، ولاتّباع طريق النجاة، هو العملُ بخلاف رغباتهما»[1].

---

١ - روح الله الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث الرابع، في بيان معالجة الكبر، ص١٣٠.

٤ - نهج التقوى: يقول ،تعالى،: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[البقرة/٢٢٣]. والتقوى تعني أن يلتزم الإنسان بأوامر الله ،تعالى، ونواهيه، ويطبق أحكام شريعته، يحل حلاله ويحرم حرامه.. لكي يقي نفس من كلِّ ما يمكن أن يضرها ويتسبّب بالأذى لها في الدنيا من موبقات الأخلاق والأفعال.. وأهم أشكال التقوى هو أنْ يزجر نفسه الأمارة بالسوء، وينزع عنه تسلطه عليه من خلال الطاعات وأداء الواجبات والالتزام بمقتضياتها الدِّينيّة أخلاقاً وسلوكيات عملية..

٥ - الالتزام بعبادة الدعاء: وخاصة منها المناجاة بأدعية أهل البيت الطهرين(ع)، من أجل التخلص من تلك الصفات الخبيثة، ورفعها من قلب الإنسان ﴿**وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً**﴾[النساء/٣٢].. والخير كله بيده تعالى: ﴿**تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**﴾[آل عمران/٢٦].

● المبحث الخامس:
التّحلّي بالأخلاق الطيِّبة والقيم الخيرة الفاضلة

لا يمكن للإنسان أن يتلقى الفيوضات الرُّوحيّة والإشراقات الإلهيَّة إلاَّ بعد أنْ تصفو نفسه، وتتحرر من سجن العادات السيئة والأخلاق الرذيلة، وتتطهر من شوائب الباطل.. وهذا يحدث أو ينطلق فقط عندما يمارس

هذا الإنسان الجهاد الأكبر (جهاد النفس)، حيث يبدأ بالتحلي بالأخلاق الإلهيَّة على طريق تكامله الرُّوحاني والنورانيّ، يقول تعالى ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذينَ لا يُريدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقينَ**﴾[القصص: ٨٣]..

وعالم الآخرة لا أثر فيه لأيِّ أخلاق سيئة، ولا لطبائع أرضية شهوانيّة، ولا يوجد أي موقع للتكبر وسوء النيَّات والفساد.. إنَّه مُناخ روحانيٌّ يتطلب صفات ومواصفات أخلاقيَّة (يجب أنْ يتوفَّر عليها الإنسان المؤمن) تتلاءم معه كيومٍ للقاء والقرب من الله ،تعالى،.. من حيث ضرورة ارتقاء النفس لتكون مستعدة لتلقي نعمه ،تعالى، وفيوضاته وإحسانه ﴿**وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾[الإسراء: ٢٠].. وعطاؤه ،تعالى، خيرٌ محضٌ، يقول تعالى: ﴿**ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله**﴾[النساء: ٧٩]، و﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾[النساء: ٧٨]، والإنسان لا يملك من أمره شيئاً، وهو غاية في الضعف أمام ربه، فهو خلق ضعيفاً ﴿**اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف**﴾[الروم:٥٤]، وفقير ﴿**رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ**﴾[القصص: ٢٤].

والخلاصة هنا، أن المُهمَّة الأساسيّة والتكليف الجوهريَّ للإنسان هو أن يطهر نفسه من الخبائث والأخلاق السيئة والرذيلة، ويجهّزها لتلقي إشراقات الرحمن، عزَّ وجلَّ، وتمثُّل الصفات الربانيّة.. كي تعود النفس إلى موقعها في أحسن تقويم.

الفصل الثالث عشر

الإخلاص

مقدمة

تحدَّثنا فيما مضى من مباحث عن المقامة الأهمِّ والأرفع في مراتب البشريّة، وهو مقام القرب من الله ،تعالى، وهو مقام يجعل الإنسان مهيَّئاً لكي يكون الله ،تعالى، حاضراً معه في كل مواقع حياته، لا يتركه، ولا يغيب عنه لحظة، فالله معه أينما ذهب وحيثما حلّ.. بل أينما ولّى وجهه يشاهد بأم عينيه دلائل آياته ،تعالى، تذكّره به، وتجذبه إليه، ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجه اللَّهِ**﴾[البقرة: ١١٥].

ولكنَّ بدء السير على هذا الطريق ليس سهلاً، فدونه -كما ذكرنا في السابق- معيقات وموانع، تجب إزالتها من خلال المجاهدة والمصابرة وتقوية الإرادة والاجتهاد والمثابرة على الصراط المستقيم.. ولكن يضاف إلى ما تقدم شرط آخر جوهري وأساسيّ ينبغي على الإنسان السالك دربَ الآخرة، الوقوف عنده، وتذكره، والعمل به.. لأنّه شرط أساسيّ في قبول الأعمال عند الله ،عزَّ وجلَّ، والقبول شرط نيل رضاه ،تعالى، ومن ثَمَّ القرب منه.

● **المبحث الأول:**
إخلاصُ القلب لله ،تعالى، والسّعي للقائه

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدا**﴾[الكهف: ١١٠].

توضح الآية وتحدِّد لنا أنَّ لقاء الله ،تعالى، له شرطان أساسيّان يجب الخضوع لهما والالتزام بمقتضياتهما، أولهما: هو العمل الصالح (جرى الحديث في السابق عن مصداقين له، وهما الهجرة والجهاد في سبيله ،تعالى،)، وثانيهما: عدم الشرك بالله والإخلاص له وقولاً وفعلاً.. جاء عن الإمام علي(ع): «إنّ أفضلَ ما يتوسّل به المتوسّلون الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وكلمة الإخلاص، فإنّها الفطرة»[1]..

والله ،تعالى، طلب من الناس وأمرهم بطاعته وعبادته ﴿**وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاه**﴾[الإسراء: 23]، عبادة يقينيّة مخلصة لوجهه الكريم، لا يشترك أحد فيها معه: ﴿**وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّين**﴾[البينة: ٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾[الزمر: ٢]، ﴿**وَادْعُوهُ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾[الأعراف: ٢٩]، وفي مكان آخر يخاطب رسوله(ص) بقوله: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾[الزمر: ١١].

---

١ - الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه،ج١، ص٢٠٥.

● المبحث الثاني:
أصلُ الإخلاص وحقيقته الذَّاتيَّة

إنَّ الإخلاصَ لله هو غايةُ الدين، جاء عن الإمام علي(ع): «الإخلاص غاية الدين»[١]، وهو أفضل العبادات، بل هو روح العبوديَّة لله وجوهرها بحسب ما أخبرنا إمامنا الصادق(ع): "أفضل العبادة الإخلاص"[٢]. وهو سرّ من أسرار الله قذفه في القلوب النقيَّة الطاهرة لمن اختارهم للقرب منه ،تعالى، يقول الرسول(ص) مخبراً عن جبرئيل(ع) عن الله ،تعالى، أنّه قال: «الإخلاص سرٌّ من أسراري، استودعته قلب من أحببت من عبادي»[٣].

وحقيقة الإخلاص تكون من خلال تخليص نيّة الإنسان وعمله من شائبة غير الله ،تعالى، يقول النبيّ الكريم(ص): «إنّ لكلّ حقّ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يُحمد على شيءٍ من عمل لله"[٤]. فالمخلص هو الذي لا يطلب من وراء أيّ عملٍ يقوم به سوى التقرّب لله، عزَّ وجلَّ، والسعادة بقربه، ونيل رضاه.

فكل الأعمال يجب أنْ تكون قائمة على النية السليمة والإخلاص

---

١ - الآمدي، غرر الحكم، ١٣٤٠.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٤٩.
٣ - بحار الأنوار، مصدر سابق، ٢١٤.
٤ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٣٠٤.

الكامل له، عزَّ وجلَّ، وألاَّ يكون فيها ذرة شرك به: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾[النساء: ٤٨]، لأنّه ظلم عظيم ﴿**يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[لقمان: ١٣]، والله ،تعالى، لا يهدي القوم الظالمين ﴿**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[الصف: ٧].

والدين الخالص له، تعالى، هو الذي يختاره عزَّ وجلَّ: ﴿**ألا لله الدِّينُ الخَالِصُ**﴾[الزمر: ٣]، وإذا داخلته شوائب وأهواء ونزعات خاصة، فلا يكون عندها هذا الدين خالصاً له.. يقول الرسول الكريم(ص): "لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

إذاً إنَّ الإخلاص لله هو ركيزة الدين وقاعدة الإيمان، وهو رأس الفضائل، والمنوط في قبول الأعمال وصحتها، فلا قيمة لعملٍ لا إخلاص معه، جاء عن الإمام عليّ(ع): «من لم يصحب الإخلاصُ عملَه لم يقبل»[٢]. لذا قال(ع) في شأن المخلصين: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره»[٣].

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١،ص٩٠.
٢ - الآمدي، غرر الحكم، ص١٥٥..
٣ - الحر العاملي، وسائل الشيعة،ج١، ص٦٠.

● المبحث الثالث:
نتائج الالتزام بالإخلاص

١ - عجز الشيطان عن الهيمنة على الإنسان المخلص الملتزم.. لأنه، عزَّ وجلَّ، حاضر بشكل كلِّي دائم في حياة الإنسان المخلص، فلا طريق للشيطان إليه: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[ص:٨٢-٨٣].

٢ - إعفاء الإنسان المخلص من الحساب في يوم الحشر، يقول تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ**﴾[الزّمر: ٦٨].. وتوضح الآية أن هناك جماعة من البشر هم في مأمن من صعقة يوم القيامة وهلعه، وإذا ضممنا إليها الآية الشريفة ﴿**فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[الصافات: ١٢٧ - ١٢٨]، ندرك أنَّ الجماعة المقصودة هي جماعة العابدين المخلصين لله في العمل والقول الذين يكرّمهم تعالى، بألَّا يقفوا في عَرَصة يوم القيامة، لأنهم قتلوا شهواتهم والنفس الأمارة بالسوء، وعانَوا وتعبوا في المجاهدة وترويض النفس بالعمل الصالح وممارسة الطاعات وتطبيق أحكام الشريعة.

٣ - يميز الله ،تعالى، جماعة أو طائفة المخلصين في يوم القيامة من خلال أنه لا يعطيهم الثواب والأجر لقاء ما عملوه في الدنيا، فالكرامة الإلهيَّة أعظم

وأكبر.. إنه يميزهم ويكرمهم بفضله ورضوانه، عكس باقي العباد الذين يثيبهم ويعطيهم لقاء عملهم لله في الدنيا، يقول تعالى: ﴿**وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصينَ أُولِئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ**﴾[الصافات: ٣٩-٤١].

٤ - إنَّ هذه المرتبة الرفيعة والمقام العالي الراقي للمخلصين يؤهِّلهم لأداء فروض الشكر والثناء والحمد لله ،تعالى، يقول تعالى: ﴿**سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصينَ**﴾[الصافات: ١٥٩ - ١٦٠].

٥ - جزاء المخلص لله يتركز في العلم والحكمة، بحسب ما ذكر الرسول الكريم(ص): «ما أخلص عبدٌ لله عزَّ وجلَّ أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[١]. والاستمراريَّة في الإخلاص تفجِّر ينابيع العلم وتورث الحكمة، وهي من حكمته وعلمه ،تعالى، الذي لا علم ولا حكمة فوقه ،تعالى..

٦ - المخلص لله ،تعالى، يرزقه ،تعالى، بالبصيرة في دينه وحياته، بحيث لا يسقط أبداً في مواقع الزلل، ولا يقع في مهاوي الفتن، بل يبقى حاضراً عارفاً موقعه ودوره، جاء عن الإمام علي(ع): "عند تحقّق الإخلاص تستنير البصائر»[٢].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٧، ص ٢٤٢.
٢ - الآمدي، غرر الحكم، ص١٩٨.

● المبحث الرابع: طريقةُ تحقّقِ الإخلاص

لا يمكنُ أن يتجسّد الإخلاصُ في حياة المؤمن من دونِ إزالة ما يمنعُ تحقّقه وتجسيده، وهو الأنانيَّة وحبّ النفس والهوى، جاء عن الإمام علي(ع): "كيف يستطيع الإخلاصَ من يغلبه الهوى»[1]. وهوى النفس شرك يقع فيه الإنسان في خضوعه لذاته وشهواتها، واستجابته لأوامرها، بدلاً من الخضوع لإرادة الله ،تعالى، ولا علاجَ لهذا الخضوع إلا بالإيمان والطّاعات، يقول ،تعالى،: ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ**﴾[ص: ٢٦]. واتباع الهوى يعني -من جملة ما يعني وضع الأهواء والنزعات الذَّاتيَّة الشهوانية مكان الله، والميول الشخصية مكان قيم الدين وأحكامه. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى**﴾[النّازعات: ٤١-٤٢]..

من هنا لا طريق أمام الإنسان الساعي في نهج الحق والإخلاص في مواجهة هواه وتركه ميوله الخاصَّة وتركيز اهتمامه بالطاعات وأحكام الدين بعدياً عن المعصيّة والزلل والوقوع في براثن مخالفة أوامره ،تعالى.

والإنسانُ المخلص، هو الذي يفعلُ كلَّ شيء في حياته بنية صادقة طلباً لرضاه ،تعالى، وحبّاً به، وسعياً لفضله وإحسانه وكرمه.. جاء عن

---

١ - الآمدي، غرر الحكم، ص٦٥.

إمامنا الصّادق(ع): «والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله، عزَّ وجلَّ»[١]..

لكن المشكلة تبرز هنا عندما يهتم الإنسان بالدنيا ويعلي من شأن هواه فيها، فيصبح خاضعاً لملذاته ومطيعاً لشهواته، ليصل بالنهاية إلى الضلال المبين في الدنيا والسقوط في جهنم الآخرة، يقول تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾[الجاثية: ٢٣].

واليقين هو الممهِّد لتفجر الإخلاص في النفس.. اليقين بالله وبدينه وقيمه، واليقين بالمعارف الإلهيَّة، ورد عن الإمام علي(ع): «الإخلاص ثمرة اليقين»[٢]. إنَّه اليقين في التوحيد القاضي بأنه لا قوة مؤثرة في هذا الكون والوجود سوى قوة الله ،تعالى، وأنّ كلّ شيء في هذا العالم يبدأ من الله ويعود إليه: ﴿**الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦]. وأول خطوة ينبغي أن يخطوها الإنسان وصولاً لليقين، هي خطوة العلم والمعرفة بأركان الدين وركائزه وعلومه..يقول الإمام علي: "أوّل الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له»[٣].

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي،ج٢، ص١٦.
2 - الآمدي، غرر الحكم، ص197.
3 - نهج البلاغة، الخطبة1.

الفصل الرابع عشر

القرآن ثقل اللّه الأكبر

● **المبحث الأول:**

القرآن ركيزة الدين ودستور الحياة

جاء عن النبيّ الكريم(ص): "إنيً تاركٌ فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً؛ كتاب الله، وعترتي أهل بيتي"[١]. فالله،، عزَّ وجلَّ جعل شريعته وأسس دينه محفوظة في كتابه الكريم، كما جعل الرسول الكريم(ص) وأهل بيته الطاهرين(ع) كلماته التامات؛ ومن أرادَ الوصول إليه سلك سبيله؛ جاء في الحديث عن الرسول(ص): "عدد درج الجنّة عدد آيات القرآن، فإذا دخل صاحب القرآن الجنّة قيل له: اقرأ وارقَ، لكل آيةٍ درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة"[٢].

● **المبحث الثاني:**

جوهر القرآن الكريم

جاء عن الرسول الكريم(ص) في وصف القرآن الكريم: "القرآن غنى لا غنى

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٩٩.

٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩، ص٢٢.

دونه، ولا فقر بعده"[١].. كما ورد عن الإمام علي(ع): "واعلموا أنَّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأْوائكم، فإن فيه شفاءٌ من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال. فاسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه.."[٢].

فالقرآن الكريم هو الدواء الذي يشفي من كل أمراض النفوس والقلوب.. ومن أراد تطهير باطنه من الأمراض والرذائل الأخلاقيّة، فليتمسّك به. وفيه الشفاء من أكبر الداء وهو الكفر.. جاء عن الإمام علي(ع): "تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور"[٣]. وورد عنه(ع): "من قرأ القرآن فكأنّما أُدرجت النبوَّة بين جنبيْه إلَّا أنّه لا يوحى إليه"[٤].

أمّا من يعرض عن كتابه، ويحجم عنه، ويجعله وراء ظهره، فالنار هي المثوى، يقول الرسول(ص): "تعلّموا القرآن واقرؤوه، واعلموا أنّه كائنٌ لكم ذكراً وذخراً، وكائنٌ عليكم وزراً. فاتّبعوا القرآن ولا يتبعنّكم. فإنّه من تبع القرآن تهجّم به على رياض الجنّة، ومن تبعه القرآن زُجّ في قفاه حتى يقذفه في جهنّم"[٥]..

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٦، ص١٦٨.
٢ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٣٩.
٣ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٣٦.
٤ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج٢، ص٦٠٤.
٥ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٣٩.

وبناء عليه، فالقرآن الكريم كتاب هداية، يغتني منه الإنسان خلقاً وكمالاً: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[سورة يونس: ٥٧]..

● المبحث الثالث:
آداب التمسّك بالقرآن الكريم

يتحدثُ الرسولُ الكريم عن وجود ظاهرٍ وباطنٍ لكتاب الله ، يقول(ص): "إِنَّ الْقُرْآنَ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْن"[1]، وتجبُ مراعاة المنهجين (الظاهري والباطني) في أي عمل وسلوك والتزام، ومن دون تلك المراعاة لن تتم الاستفادة الحقيقيَّة من آثاره النُّورانيَّة..

● المبحث الرابع:
آداب القرآن الظاهريَّة

الطّهارة: قال عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّه لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾[الواقعة: ٧٧-٧٩].

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٥، ص١٠.

تنظيفُ الفم: جاء عن إمامنا الصادق(ع): "قال رسول الله(ص): نظّفوا طريق القرآن، قيل: يا رسول الله وما طريق القرآن؟ قال: أفواهكم. قيل: بماذا؟ قال: بالسّواك"[١].

الاستعاذة: لأنها تعني أنْ يلجأ الإنسان إلى كهف حصين محصن وهو الله ،تعالى،.. يقول عز من قائل: ﴿**فَبِما أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[سورة الأعراف: ١٦]. لذا أُمرنَا باللجوء إليه ،تعالى،، والاستعاذة به من شرور الحياة: ﴿**فَإِذا قَرَأْتَ القرآن فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطان الرَّجِيمِ**﴾[سورة النحل: ٩٨].

الترتيل: قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً**﴾[سورة المزمل: ١-٤]. والترتيلُ هو القراءة بتأنٍّ وتمهّلٍ مصحوباً بالصَّوت الجميل الحسن، مع ضرورة أن تكون قراءة القرآن صحيحة وفصيحة وخالية من أية أخطاء، جاء عن الإمام الصادق(ع): "الترتيل أنْ تتمكَّثَ به وتحسِّن به صوتك، وإذا مررت بآية فيها ذكر النَّار فتعوّذ باللّه من النَّار، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنَّة، فاسأل اللّه الجنَّة"[٢]. وعن رسول الله(ص) قال: "زيّنوا القرآن بأصواتكم"[٣]، وقال(ص): "إنَّ حُسن الصَّوت زينة للقرآن"[٤].

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢، ص٢٢.
٢ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٦، ص٢٠٧.
٣ - العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩.، ص١٩٠
٤ - العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٩٠.

مكان القراءة: جاء عن الإمام علي(ع): "البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، وإنّ البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقلّ بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين"[١].

مقدار القراءة: يقولُ الإمام الصادق(ع): "القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أنْ ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آية"[٢]. وقد ورد التأكيد على التروي في القراءة: جاء عن الإمام الصادق لمَّا سئل عن ختم القرآن كلُّ يومٍ فقال(عليه السلام): "لا يعجبني أنْ تقرأه في أقل من شهر"[٣].

الحزن والخشوع: جاء عن الرسول الكريم(ص): "إنّ القرآن نزل بالحُزن فإذا قرأتموه فابكوا فإنْ لم تبكوا فتباكَوا"[٤]. وعن إمامنا الصادق(ع): "إنّ القرآن نزل بالحُزن فاقرؤوه بالحُزن"[٥].

التدبّر: يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**أَفلا يتدبَّرون القرآن أمْ على قُلوبٍ أَقفالُها**﴾[محمد: ٢٤]. ويقول الإمام علي(ع): "ألا! لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر"[٦].

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٦١٠.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ص٦٠٩.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٦١٧.
٤ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٧٠.
٥ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٦١٤.
6 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص210، ب26.

الفصل الخامس عشر

الآدابُ المعنويَّة للقرآن

● المبحث الأول:
تدبُّر القرآن وقراءته بوعي وهدفية

إذا أردنا أنْ نقرأ خلاصة سيرة النبيّ الكريم(ص) وآل بيته الأطهار(ع)، فيما يتعلق بأساس دعوتهم للإسلام، فإننا سنجد أنَّ كل أعمالهم ومجهوداتهم وتحركاتهم وتضحياتهم العظيمة على طريق هذا الدين، جاءت أساساً -وبالعنوان الأوَّلي- من أجل تركيز وتثبيت القرآن في حياة المسلمين كدستور حياة ومنهج عمل وسلوك، والمدخل الرئيسي للقيم والتشريع والكمال والروحانيَّات الكاملة.. وحول هذا الموضوع يتحدث السيد الخميني(رحمه تعالى) قائلاً: "إنَّ المبتغى من خلال قراءة القرآن هو ارتسام صورته في القلب وتأثير الأوامر والنواهي فيه، وتثبيت الأحكام والتعاليم الإلهيَّة، ولا يتحقّق هذا إلاّ في ظل مراعاة آداب القراءة"[1]. وما يقصده الإمام هنا من قراءة القرآن، أنْ تكون قراءته قراءة واعية هادفة حكيمة مسؤولة.

---

١ - الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الحديث التاسع والعشرون، ص٥٥٧.

● المبحث الثاني:
الآداب الواعية والهادفة لقراءة كتاب الله

ومن أبرزها وأهمّها:

تعظيمُ القرآن وتبجيله:

تنطلق فكرة تعظيم الشيء من المكانة السامية والرفيعة التي يحظى بها، بما يعني أنَّه حالة شعورية مركوزة في بنية الإنسان وطبيعته، ويمارسها العقلانيون من خلال وجدانهم وضميرهم..

والقرآن الكريم صورة من صور عظمة الخالق، ومظهر أسمائه وصفاته، وللكمال الذي لا حدود له.. ونحن كبشر غير قادرين على الإحاطة به من كافة جوانبه.. جاء عن الإمام الخمينيّ: "إنّ الله تبارك وتعالى، لسعة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه، وتنزّل به على حسب تناسب العوالم حتّى وصل إلى هذا العالم الظلمانيّ وسجن الطبيعة، وصار على كسوة الألفاظ وصورة الحروف، لتخليص المسجونين في سجن الدنيا المظلم...."[1].

ويحتوي كتاب الله ،تعالى، على كل مواقع العظمة ودرجاتها ومستوياتها.. فالله ،تعالى، هو كاتبه ومنزله وحياً (عن طريق جبرائيل

---

١ - روح الله الخميني، الآداب المعنويّة للصلاة، في مطلق آداب قراءة القرآن الكريم، ص٣٢٤.

أمين الوحي وسيد الملائكة) على رسوله الكريم(ص) الذي شرحه وبينه للناس، هو آل بيته الطاهرين(ع)..

نعم، إن الله ،تعالى، جامع لكل صفات الجمال والجلال والعظمة والكمال المطلق التي عجزت كل عقول البشر عن معرفة وإدراك كنه عظمته، جاءَ عن الإمام الصادق(ع)، قال: "لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون"[1].

رفع الموانع وإزالة الحجب:

القرآن الكريم هو كتاب إلهيّ، طلب الله فيه من عباده أن يتمسكوا به ويطبقونه في حياتهم وعلاقتهم، كما وعدهم بالرحمة الكاملة والهداية الكلية، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**قد جَاءكُم مِّن الله نُورٌ وكِتابٌ مُّبينٌ يَهْدى به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمَ ويُخْرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النور بِإِذْنِهِ ويَهَديهِمْ إلى صِراطٍ مُّستقيمٍ**﴾[المائدة: ١٥-١٦].. أي أنه فيه الكثير من اللطائف الرحمانية والأنوار القدسية والإشراقات النورانية، التي غالباً لا يلاحظها الكثير من الناس.. وسبب ذلك هو وجود حواجز وموانع،. تقف حائلاً دون الاستفادة الحقيقيَّة من كتاب الله، يجب رفعها وإزالتها، وهذا ما يتحدث عنه العارف الإمام الخميني: "اللازم على المتعلّم والمستفيد من كتاب الله أن يجري أدباً آخر من الآداب المُهمَّة،

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٠٧.

حتّى تحصل الاستفادة، وهو رفع موانع الاستفادة. ونحن نعبرّ عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن"[١].

ويمكن أن نذكر هنا أبرز وأهمّ هذه الموانع:

أ - حجاب رؤية الإنسان لنفسه في حالة استغناء:

وهذه من فعل الشيطان الذي يزين للإنسان سوء فعاله وأعماله، ويضخم رؤيته لذاته.. ويتوهم أنه في حالة استغناء عن فهم كتابه ،تعالى،.

ب - حجاب الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة:

والتاريخ الإسلاميّ حافل بالكثير من تلك الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة التي تعمد أصحابها سلوك طريق التحريفات المتعمّدة للقرآن الكريم، والكذب على الله ورسوله..

ج. حجاب شبهة التفسير بالرأي:

ومن الحجب التي تمنع استفادة الإنسان من إشراقات وجماليات كتاب الله، وجود اعتقاد (باطل بطبيعة الحال) يقوم على أساس أنه ليس من حق أي كان الاستفادة من القرآن.. والأمر منحصر ومقتصر على ما يكتبه المفسّرون

---

١ - روح الله الخميني، الآداب المعنويّة للصلاة، الفصل الرابع، في بيان رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن، ص٤٣.

أو يفهمونه. وهذه شبهة كبيرة وضلال مبين نهى عنه الرسول: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار"[١]. والتفسير بالرأي فضلاً عن كونه انحرافاً وضلالاً، حيث يربط الناس بمعنى وتأويل واحد يتقوله مفسر من هنا وآخر من هنا، هو مانع للاستفادات الأخلاقيّة والإيمانيَّة السلوكيَّة التي لا تتصل هي بأي شكل من أشكال التفاسير.. فمثلاً، إذا استفاد أحدنا من قوله ،تعالى، في قصة موسى والخضر(ع): ﴿**هل أتّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ ممَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾[الكهف: ٦٦] التواضع للأستاذ والمربيّ، وضرورة جعل التعلّم لأجل الوعي والنباهة، لا يكون قد فسّر القرآن، أو فسّره برأيه. فلا ربط لهذا بالتفسير حتّى يسمّى بالتفسير بالرأي.

د. حجاب الذنوب والمعاصي:

إن القلب هو مكان ومستقر تلقي الإشراقات النورانية التي يشعها القرآن، ولهذا يجب أن لا يكون هذا المكان قاعدة للمعاصي وظلمات الذنوب..

هـ. حجابُ هوى حبّ الدنيا:

إن حب الدنيا والتعلق الشهواني بملذاتها ورغائبها، هو حجاب يمنع

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٨٩.

تلقي الإنسان لآثار القرآن الكريم، واستفادته من فيوضاته.. فالتعلق يزيد من حجاب القلب، ويجعل الإنسان خاضعاً لهواه ومزاجه، بحيث ينسى القرآن الكريم، خاصة وأن كتاب يدعو إلى الدار الآخرة والكمالات المعنويَّة، ويربط هذا الأمر بالمجاهدة والكدح الارتقائي إلى الله ،تعالى،..

● **المبحث الثالث:**
مَعرفةُ القرآن في أهدافه وغاياته ومقاصده

لا يمكنُ للمسلم أنْ ينتفعَ بكتابِ الله ،تعالى، -ويستحضرُه دوراً مهمّاً في حياته وسلوكه- من دون أنْ يقفَ واعياً ومُدْركاً لأهدافه وغاياته. فاللهُ ،تعالى، أنزلَ آيات القرآن بيّنات ليكونَ هدايةً للناس إليه عزَّ وجلَّ، من أجل ترسيخ العلاقة والارتباط معه.. هذا هو الهدف الرئيسي، وعنه تتفرعُ جملة غايات ومقاصد أخرى، من أبرزها:

١ - السعي الدعويّ للمعرفة الإلهيَّة (معرفته،تعالى،).
٢ - الدعوة إلى تربية الذات الإنسانيَّة وتهذيبها.
٣ - توضيحُ طريقة تربية الرسل وإعدادهم من جانبه عزَّ وجلَّ.
٤ - تسليطُ الضوء على سلوكيات الرسل (قدوة البشريّة).
٥ - بيان وتوضيح أعمال أهل الكفر والضلال وتبيان دوافع انحرافاتهم.

٦ - عرض قوانين الشريعة وكل ما يتعلق بالآداب والسنن.
٧ - التّوسع في الحديث عن الدار الآخرة.

● المبحث الرابع: التفكّر

يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِواحِدةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**﴾[سبأ: ٤٦].. والتفكّر هو إعمال العقل في أمرٍ ما والبحث عن أسبابه ومقاصده وغاياته، ودراسة طرق الاستفادة منه والانتفاع به.. وعلى مستوى القرآن الكريم يكونُ التفكرُ دراسة الغايات ومعرفة المقاصد التي أرادها القرآن الكريم في عرض رسالته للبشرية، وهي غاية الهداية إلى النور والإيمان وإخراج الناس من ظلمات النفس والحياة إلى نور الإيمان بالله ،تعالى، ﴿**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[النحل: ٤٤]، ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون**﴾[الأعراف: ١٧٦]، فالتفكر حياة لأنه يحرك العقل ويحيي القلب، جاءَ عن إمامنا جعفر الصادق(ع): "إنّ هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى، فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره، فإنّ التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بِالنّورِ"[1]. ولهذا

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٦٠٠.

نجد أنّ القرآن ينبه الناس إلى ضرورة التأمل والتدبر في آيات الله ،تعالى،، والتماس المعارف من أجل الوصول إلى غاية ومقصد كل آية منه، وإلا فالخسران المبين هو النهاية: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها**﴾[محمد: ٢٤].

● المبحث الخامس:
البرنامج العملي للتّفكر بالقرآن والتّدبر فيه

هناك عدة أمور مُهمَّة يجب أخذها بعين الاعتبار فيما يخص موضوعة التفكر والتدبر، والعمل على تحصيلها كملكة نفسية وعقليَّة، حيث أن هناك بعض الناس قد يجدون صعوبة كبيرة في التفكر، فتختلط عليهم الأمور، وتتضارب الأفكار.. من هنا لا بد من النظر بما يأتي:

١ - التفكرُ ليسَ مطلوباً أو مرغوباً بذاته، بل هناك غاية وهدف يجب الوصول إليه بعد التفكر والتأمل.

٢ - لا يمكن إشعال وإثارة التفكر من دون تركيز واهتمام.

٣ - التفكر والبحث عن أمر ما، بحاجة لأسس ومواد خام لاستخدامها في عملية البحث والتقصي. وهي لا تأتي مجاناً وبلا تعب وقراءة ومطالعة.. فمثلاً عندما تريد أن تتفكر في آية قرآنية ما، عليك تقرأ وتطالع بإمعان كل ما كتب حولها من تفاسير وروايات.

● المبحث السادس: التنفيذ والتطبيق

لا تكمن الغاية من القرآن في قراءته ونيل ثواب حفظه وتلاوته، بل أيضاً في تطبيق ما تعلمناه منه في حياتنا وسلوكنا وعلاقاتنا الخاصَّة والعامَّة.. وهنا يروى عن الرسول الكريم(ص) قوله: "من تعلّم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حب الدنيا وزِينتها استوجب سخط الله، وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذين ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم"[1]. ويمكن أن نضرب هنا كثيراً من الأمثلة من القرآن حول مسألة الانتفاع بالقرآن وتطبيق آدابه وسننه.. ففي قصة آدم(ع) التي توسع القرآن في غير موضع وسورة في الحديث عنها، وما جرى على آدم، نجد أن آدم نظر وتأمل وبحث في الدافع والسبب وراء طرد الشيطان من مقام القرب منه ،تعالى،، فتوصل إلى معرفة السمات والمواصفات الإبليسية والأخلاق الشيطانية، وأن كل من يملك مثلها، سيطرد لا محالة من رحمة الله..

بما يعني ضرورة تزكية النفس بعد تطهيرها من تلك الخصائص والسمات الأخلاقيّة والسلوكيَّة الضارة.

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٦، ص١٨٣.

● المبحث السابع: كيفيّة التنفيذ والتطبيق

ويمكن أن نضرب هنا مثالاً آخر عن موضوعة التفكر والاستفادة منها من التطبيق.. فآدم تم تكريمه من قبل الله ،تعالى، بأن طلب من الملائكة أن يسجدوا له، وهنا يأتي التفكر عند الإنسان باحثاً عن سبب هذا التكريم والامتياز الإلهي له وتفضيله على الملائكة المقرَّبين (المسبحين العابدين).. والجواب يأتي من خلال الآية، حيث عرف ،تعالى، الملائكة إلى ميزة تفضيلية جوهرية وهي: ﴿**وعلَّم آدم الأسماءَ كلها**﴾[البقرة:٣١]. والتفكر هنا هو الذي سيوصل الإنسان القارئ إلى حقيقة أن معرفة الأسماء وتعليمها هو التحقق بحقيقتها. يقول الإمام الخميني: "الإنسان يستطيع أن يكون مظهراً لأسماء الله والآية الإلهيَّة الكبرى بالارتياضات القلبيَّة، حتى يصبح وجوده وجوداً ربانياً"[1].

من هنا إذا ما توصّل المرء إلى معرفة الغاية من هبوط آدم وسبب وجود الإنسان على الأرض، قد ينظر إلى ما منحه ،تعالى، من مزايا وحقائق جوَّانيَّة في داخله، ليعلم أن التمكن من الحقيقة والقبض عليها (غاية الوجود) يكون فقط بتعلم الأسماء، وهذا يمكن فقط من خلال الإيمان واتِّباع هدى الرحمن، وترك الأخلاق الشيطانيَّة من تكبر وأنانيّة وغرور واتباع الأهواء.

---

١ - روح الله الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٥٥.

الفصل السادس عشر

أهل البيت(ع)، الثقل الأصغر

● المبحث الأول:
المحبة عند الإنسان وأهميتها في حياته

الحبّ من النوازع الذَّاتيَّة البشريّة ومن أهم الميول الجوَّانيَّة المودعة في كلّ إنسان، وهو موجود لدى كل البشر، ولا يمكن لأي نفس بشرية أن تخلو منه. والحب هو حالة انجذاب وتعلق شعوري نفسي بين الإنسان وما يعتقد أنه كماله.. هذه الحالة من التعلّق موجودة فينا جميعاً، ولكن مع الاختلاف في طبيعة المتعلق والمحبوب.. ويأتي الحب ليمنح الإنسان شعوراً نفسياً بالطمأنينة والسعادة والسكينة الرُّوحيّة، إضافة إلى أنه شعور مسؤول عن كل توجهاتنا وتحركاتنا.. جاء عن نصير الدين الطُّوسي: "هو الذي يكون مبدؤه مشاكلة العاشق لنفس المعشوق في الجوهر. وهو يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد ورقّة منقطعة عن الشواغل الدنيوية"[1].والمحب يحاول دائماً التماثل مع محبوبه في سماته وصفاته وما عليه من خصال وشمائل.. بل ويتبعه في كل شيء، فلا يخالفه بأي شيء، بل ينظر لما يريده محبوبه..

---

١ - أبو علي بن سينا، الإشارات والتنبيهات، تحقيق وشرح: نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، شرح الشرح: قطب الدين محمد بن محمد أبي جعفر الرازي، الناشر نشر البلاغة، ج٤، ص٦٠٢.

● المبحث الثاني: القلب أمير البدن

الطاعةُ الحقيقة تأتي كنتيجةٍ للحبّ الحقيقيّ.. والقلبُ هو المعيار في أية عبادة.. جاءَ عن الرسول الكريم(ص): "...إنّ الله ،تعالى، ما فرضَ الإيمان على جارحة من جوارح الإنسان إلا وقد وُكِلَت بغير ما وُكِّلَت به الأخرَى فمنها قلبه الذي يعقل به ويفقه ويفهم ويحلّ ويعقد ويريد وهو أميرُ البدن"[1]. نعم، القلب هو القوّة المحرّكة الأساسيّة لأيّة حركة أو أيّ فعل مهما بدا صغيراً وبسيطاً.. وأما عن الكيفيَّة في القرار والفعل فهي تمر بمراحل:

١. **مرحلةُ التّصوّر:** وهي مرحلة تخيّل العمل، وتصوره.

٢. **مرحلةُ التّصديق:** التحليلُ العقليّ للعمل، والوقوف على مدى ما فيه من إيجابيات وفوائد.. فالعقل الخاضع للهوى سيبقى معطلاً، وسيتم الفعل دون الأخذ برضاه ،تعالى.

٣. **مرحلةُ التّعلّق:** وهي مرحلة القلب الذي يكون بمنزلة الفيصل والميزان، فيتأمل في العمل وطبيعته، ويزِنُه، ويدرسه بالاستناد لما يحب، ومن ثم يدفع الجسم نحوه.. فإذا كان القلب محباً وعاشقاً لله ،تعالى،، لنْ يدفع الإنسان إلا للأفعال الخيرة والمفيدة، وسينجذب لها، ويبتعد عن الأعمال السيِّئة غير المفيدة.

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٦، ص٧٣.

٤. مرحلةُ التنفيذ والتّطبيق: وهي مرحلة تمثّل الأفعال واقعاً عملياً عن طريق الآلات والجوارح خارجياً.

● المبحث الثالث: منْ هُم الذين يَجبُ أنْ نحبّهم عملياً؟

إنَّ القلب محور وميزان الأفعال، أيْ أنَّ دوره مركزي وأساسيّ في حركة الأعمال كلها.. ولا شك في أنَّ طبيعة هذا الدور ونوعيته مرتبطة بالشيء المحبوب الذي انشدّ إليه القلب وتعلّق به. ولهذا إذا صلح القلب صلح الإنسان بصلاح أعماله واستقامتها.. جاء عن الصادق(ع): "وهل الدين إلَّا الحبّ"[١]. وجاء عن الباقر(ع) عندما سأله سائل عما إذا كان فيه خيرٌ أم لا، فأجابه(ع): "إذا أردت أنّ تعلم أنَّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك..."[٢]. وسيكونُ من آثار هذا الإدراك والوعي ومن مآلاته العمليَّة وضوح أحد معاني قوله ،تعالى،: ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩].

طبعاً، يأتي التركيز على موضوع الحب في الإسلام، لأنَّه يتصل بتربية الإنسان، حيث إنَّ الإسلام رسالة إنسانيَّة أراد إصلاح الإنسان الذي يشكل

---

١ - الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج٨، ص٧٩.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٢٦.

جوهر رسالته وقيمه، ومصير هذا الإنسان هو قضية محورية وجوهرية لهذه الرسالة، وهو أمر يتصل في العمق بصلاح معدنه وأساس وجوده، ولا يمكن أنْ يتحقق إلا عندما يتعلَّق هذا القلب بالكمال الحقيقيّ الذي تحبه وتعشقه الفطرة وتميل نحوه باستمرار. والله ،تعالى، بعث الرسل وأنزل الكتب السماوية إلى الناس لهدايتهم وإعادة تذكيرهم بميثاق فطرتهم السليمة، جاء عن الإمام علي(ع): "فبُعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم مَنسِيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول"[١]. أي أنَّهم جاؤوا ليرشدوهم إلى المصداق الواقعي للكمال الأعلى الذي يتطلعون إليه، ويأملون نيل القرب منه.. وهذا يتحقق بالمحبة والتعلق القلبيّ وإزالة كافة التعلّقات الجزئيَّة الآنيَّة كحب الهوى والانشداد للدنيا، وذلك فقاً لقاعدة: «عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم"[٢].

● المبحث الرابع: آل البيت(ع) التجلِّي العمليِّ للحب الحقيقيّ

بالنظر إلى كون حب الدنيا مسيطرًا على كثير من الناس، وهناك استغراق لدى كثير من نفوسهم في مظاهرها وزخارفها، (بما يعني أنَّهم

١ - نهج البلاغة، ج١، ص٢٣.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٣١٥.

غير قادرين على معرفة المصداق الحقيقيّ للكمال المطلق الذي هو الله، تعالى،)، فإنَّه ،تعالى، أرسل لهم تمظهرات هذا الكمال المطلق بجلباب البشريّة، وذلك لكي يتمكنوا من معرفته عبرها.. حيث كان خلق الخليفة (الإنسان) هو أعلى تجليات هذا الوجود الكبير، يقولتعالى: ﴿**إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة: ٣٠].. إنَّه الإنسان خليفة الله ،تعالى، الخليفة الواقعي العملي الذي جاء كمظهر وممثل حقيقي له على الأرض..

من هنا، كان أئمَّة أهل بيت النبوَّة(ع)، حيث شاهدهم الناس أمام أعينهم بشراً يتحركون في واقع الحياة والمجتمع، ويمارسون كافة مواقعها ومظاهرها الحياتيّة الاجتماعيَّة وغير الاجتماعيَّة في علاقتهم ومختلف شؤونهم.. ومع هذا كانوا هم مظاهر تامّة للكمال الإلهي اللامتناهي.

جاء عن إمامنا محمد الباقر(ع): "إذا أردت أنَّ تعلم أنّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك. فإذا كان يحب أهل طاعة الله، ويبغض أهل معصيته، ففيك خيرٌ، والله يحبك. وإذا كان يبغض أهل طاعة الله، ويحب أهل معصيته، فليس فيك خيرٌ، والله يبغضك، والمرء مع من أحب"[1].

وفي رواية أخرى أنّ رجلاً يُدعى أبا عبد الله دخل على أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له الإمام: "يا أبا عبد الله! ألا أخبرك بقول الله عزَّ وجلَّ:]من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبّت

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٢٦.

وجوههم في النار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون[قال: بلى يا أمير المؤمنين. فقال الإمام (عليه السلام): "الحسنة معرفة الولاية، وحبنا أهل البيت، والسيّئة إنكار الولاية، وبغضنا أهل البيت"[١]. وجاءَ عن الإمام علي(ع): "لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنّه قضي فانقضى على لسان النبيّ الأميّ(ص) أنّه قال: يا عليّ لا يبغضك مؤمنٌ، ولا يحبك منافق"[٢].

وعن رسول الله(ص): "من رزقه الله حبّ الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة. فلا يشكّن أحدٌ أنّه في الجنة. فإنّ في حبّ أهل بيتي عشرين خصلة، عشر منها في الدنيا، وعشر في الآخرة.. أمّا في الدنيا فالزهد، والحرص على العمل، والورع في الدين، والرغبة في العبادة والتوبة قبل الموت، والنشاط في قيام الليل، واليأس مما في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله (عزَّ وجلَّ) ونهيه والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء. أمّا في الآخرة: فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزانٌ، ويُعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النّار، ويبيّض وجهه، ويكسى من حلل الجنّة، ويشفّع في مئة من أهل بيته، وينظر الله عزَّ وجلَّ إليه بالرحمة، ويتوّج من تيجان الجنّة، والعاشرة يدخل الجنّة بغير حساب"[٣].

---

1 - الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص185

2 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج34، ص50.

3 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج27، ص78.

الفصل السابع عشر

كيف نحصّل المحبة الحقيقيَّة لأهل البيت(ع)؟

● المبحث الأول:
محبةُ آل بيت الرسول(ص) سبيلنا إلى الله

كانتْ حياة الرسل وسيرتهم مثالاً في الوفاء والصدق وعدم طلب أيِّ أجر لعملهم ورسالتهم في الهداية والدعوة إلى الكمال المطلق، فأجورهم كانت عليه، تعالى، دوماً وأبداً.. وكان كلّ واحدٍ منهم إذا سُئل يقول: يا قومي! لا أسألكم على ما أقوم به من أجرٍ إن أجري إلاَّ على الله **﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ﴾**[سبأ: ٤٧].

لكن المزيَّة التي كانت للنبي الكريم محمد(ص)، ولم تكن لغيره من الرسل، أنه حصر الأجر في أمر واحد وهو محبة أهل البيت(ع) ومودتهم: **﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾**[الشورى: ٢٣].. وقد أكد عليه(ص) أكثر من مرة لكي يعلم الناس أنَّ الانتفاع بهذا الأجر لا يعودُ عليه؛ بل على الناس.. **﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ﴾**[سبأ: ٤٧]، ولبيان النفع يقول **﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾**[الفرقان: ٥٧].

وتوضح الآية الكريمة بما لا يفتح المجال لأي لبس أو شك، أن مودة آل بيت النبوَّة(ع) هو الطريق إليه ،تعالى،..

● **المبحث الثاني:**
النتائج العمليَّة للتمسّك بخط آل البيت ومحبتهم

قال تعالى: ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[البقرة: ١٨٩]. وجاء في حديث عن النبيّ الكريم(ص): "أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها"[١].

إنَّ محبة أهل البيت(ع) ومودتهم، يتحرك إسلاميّاً في سبيلين:

السبيل الأوّل: يأتي إلى العقيدة فيصحّحها.. جاء في الحديث عن النبيّ(ص): "يا عليّ لولاك أنت لم يُعرف المؤمنون من بعدي"[٢]، وحديث: "حبك إيمان، وبغضك نفاق وكفر"[٣].

السبيل الثاني: يطلّ على الأفعال والأعمال، فيوجهها إلى وجهتها الصحيحة واتجاهها الحقيقيّ. وهذا ما تحدث عنها إمامنا الصادق(ع) عن محمد بن الفضيل: "سألته عن أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله (عزَّ

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٣٤.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٧، ص٢٧٢.
٣ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٩، ص٤٢.

وجلَّ) فقال: طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر، ثمّ قال: حبنا إيمان، وبغضنا كفر"[١]. نعم، الإيمان الحقيقيّ هو الذي يتحرك الإنسان من خلاله في ممارساته وعلاقاته وأعماله، وليس هو مجرد القول النظريّ به. فمظهر الإيمان يتجلى في العمل فقط، لأنَّ ذلك هو المظهر الحقيقيّ لأصل معنى التعلق بالله وليس بالدنيا.. والإيمان هو عمل صالح والتزام بالشرع والأحكام والقيم الدِّينيّة، ولكن الصلاح الحقيقيّ يتحرك في الدنيا بصورة ولاية الإنسان الكامل. وأهل البيت(ع) هم التجسيد الواقعيُّ العمليُّ للإنسان الكامل في حركة الحياة.. جاء عن النبيّ الكريم(ص): «ألا ومن أحبّ عليّاً، فقد أحبّني. ومن أحبّني فقد رضي الله عنه. ومن رضي الله عنه كافأه الجنّة. ألا ومن أحبّ عليّاً لا يخرج من الدنيا حتّى يشرب من الكوثر، ويأكل من طوبى، ويرى مكانه في الجنّة.... الحديث»[٢].

لقد وردت قضية مودة أهل البيت(ع) والتأكيد على محبتهم في أدوارهم الإسلاميَّة المحورية، في كثير من الأحاديث والروايات والوقائع التاريخية الثابتة الواصلة حد التواتر، أي أنها لم ترد في مجرد أحاديث قليلة متناثرة هنا وهناك، مجهولة السند أو غير معروفة الأصل.. والسبب في هذا التأكيد هو الدور المهم لقيمة المودة والمحبة في أثرها بل في شدة تأثيرها على حياة الإنسان وعلى قناعاته ومختلف قناعاته وتوجهاته الدنيوية.

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص١٨٧.

٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٢١.

● المبحث الثالث:
كيف نحب أهل البيت(ع) عملياً؟

هناك طريقان أو سبيلان لتحصيل المحبة، طريق وسبيل علميّ، وآخر عمليّ حياتي..

أما الطريق الأوّل: فينطلق بالمعرفة والتعلم. أي دراسة علوم أهل البيت(ع)، وما قدموه وأنتجوه من آثار فكرية وعلمية. وربما كان من أهم النصوص القيّمة التي ذكرتهم في قيمهم وصفاتهم(ع) هي: «الزيارة الجامعة»[١].

والطريق الثاني: التحرك العملي وراءهم، والتأسِّي الحسن بهم كقدوة حسنة، من خلال اتباع منهجهم والالتزام بقيمهم وأوامرهم والسير على خطتهم العامَّة للبشريّة، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[آل عمران: 31]. والاتِّباع يأتي بعد الحب والانفتاح على القلب في مواقع الطاعات والتقوى.. ولهذا فالدعوة إلى سبيل التقوى والورع مُهمَّة لسببين، أولهما: أنَّها أساس للحفاظ على معنى الحبّ القائم والموجود، وثانيهما: من أجل تمهيد الأرضية لتحصيل هذا الحبّ إن لم يكن موجوداً:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه   هذا لعمري فـي الفعال بديع

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٢١.

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إنّ المحبّ لمن يحب مطيع[١]

جاء عن النبيّ الكريم(ص): "يا جابر! أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلاَّ من اتّقى الله وأطاعه.. الحديث"[٢].

وطاعة الولي هي من أهم الأعمال وأشرفها وأشدها تأثيراً على النفس الناظرة للحب والتعلق القلبيّ.. جاء عن الرسول(ص): "يا عبد الله! أحبب في الله وأبغض في الله، ووالِ في الله وعادِ في الله. فإنَّه لا تُنال ولاية الله إلاَّ بذلك. ولا يجد رجلٌ طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك. وقد صارت مؤاخاة الناس في يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادّون، وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً. فقال له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عزَّ وجلَّ؟ ومن وليّ الله عزَّ وجلَّ حتى أواليه؟ ومن عدوه حتى أعاديه؟ فأشار رسول الله(ص) إلى علي(ع) وقال: أترى هذا؟ قال: بلى.. قال (عليه السلام): "وليّ هذا وليّ الله فواله، وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده.. وال وليّ هذا ولو أنّه قاتل أبيك وولدك. وعاد عدو هذا ولو أنّه أبوك أو ولدك"[٣].

وجاء عن أمير المؤمنين الإمام علي(ع): "يا حُبَيْش! من سرّه أن يعلم

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤٢.
٢ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٣٤.
٣ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٧٨.

أمحب لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحبّ ولياً لنا فليس بمبغض لنا. وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحبّ لنا، إنّ الله ،تعالى، أخذ الميثاق لمحبينا بمودتنا، وكتب في الذكر اسم مبغضنا.. نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء"[١].

وجاء عن إمامنا الباقر(ع): "لن تنالوا ولايتنا إلاَّ بالورع، ولن تنالوا ما عند الله،تعالى، إلاَّ بالعمل، وإنّ أشدّ الناس حسرةً يوم القيامة لمن وصف عدلاً وخالفه إلى غيرِهِ"[٢].

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٣.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٨٧.

الفصل الثامن عشر

الذّكْر الأكبر للّه، تعالى

● المبحث الأول:
الأمر الإلهيّ بالاستعانة بالصلاة

قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ**﴾[البقرة: ٤٥-٤٦]. عندما تنزل الكوارث والمصائب بالإنسان، ولا يتمكن من مواجهتها، لأنها أقوى منه، فإنَّه يتضرع ويدعو خالقه طالباً منه السند والعون، وذلك إدراكاً من هذا الإنسان بأنه، تعالى، هو الناصر وهو المعين على كربته ونائبته، وهو القوى القدير، يقول ،تعالى،: ﴿**تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[الملك: ١].

وأما عن كيفية مد العون والمساعدة على مواجهة النوائب والبلايا التي تحدق بالإنسان وتحاول إسقاطه، فتكون -بحسب ما تحدثت عن الآية- من خلال أمرين، أولهما: أنْ يكون الإنسان نفسه مؤهلاً لمواجهتها، وقادراً على أن يكون نداً لها، بالصبر والثبات والاستقامة وتقوية الذات. وثانيهما: من خلال الانفتاح على الله، تعالى، في مواقع قوته عبر التواصل معه بالصلاة والعبادة والخشوع، يعني عبر اللجوء إليه، فهذا ما يمكن أن يوقظ في نفس الإنسان روح الإيمان والتطلع نحو الكمال المطلق، وينبهه إلى أنه مخلوق

ضعيف فقير محتاج دائماً وأبداً لرحمته، تعالى،، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميدُ**﴾[فاطر: ١٥]، ويقول ،تعالى،: ﴿**اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَليمُ الْقَديرُ**﴾[الروم: ٥٤]. فتأتي العبادة وطلب الرجاء والمساعدة منه، تعالى،، بعد الإقرار بالعجز والتقصير..

وعبادة الصلاة والتوجه نحو الخالق العظيم في خشوع، هي من أعظم وأعمق وأشرف وسائل العبادة التي تربط الإنسان بربه، مما قد يولد لديه إحساساً كبيرا بالقوة، بما يمنحه القدرة الفعلية لتحدي المشكلات ومواجهة الصعاب..

جاء عن الإمام جعفر الصادق(ع): "ما يمنعُ أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدّنيا أن يتوضّأ ثمّ يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو اللّه فيهما؟ أما سمعت اللّه ،تعالى، يقول:]واستعينوا بالصّبر والصّلاة[[1]. وعنه(ع): "كان عليّ عليه السّلام إذا هاله أمر فزع إلى الصّلاة، ثمّ تلا هذه الآية: واستعينوا بالصّبر والصّلاة»[2]. فالصلاة إذاً هي رباط وثيق وراسخ وقوي، وهي باعث حقيقي على سكينة الروح واطمئنان القلوب المتعبة، يقول ،تعالى،: ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[الرعد: ٢٨].

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٨، ص١٣٨.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص٤٨٠.

إنَّ الصلاة هي كتاب موقوت وواجب شرعي، ولم يكن عبثاً وضعها على هذا المستوى العالي من الضرورة الإيمانيَّة والسلوكيَّة، كونها تجعل الإنسان يعيش حالة روحية يرجع فيها خاشعاً إلى خالقه، مستشعراً عظمته وقوته، ملتذّاً بوصاله وتألّمه من فراقه، ومن ثَمَّ يزداد خشوعاً في صلاته حتى تصبح صلاته قرّة عينه، جاء عن النبيّ الكريم(ص): "جُعِلَ قرّةُ عيني في الصّلاة»[١]. وكان يقول عندما يحين وقت الصلاة " أرِحْنَا يا بلال"[٢].

● المبحث الثاني: معنى الصلاة وحقيقتها

تُعدُّ الصلاة أعلى وأعمق وأقرب درجات العبوديَّة إلى الله ،تعالى، فهي أصل ونبع كل الخيرات، وأعظم ما يتم التقرب بموجبه منه، تعالى.. جاء عن الإمام الصادق(ع): «ما أعلم شيئا بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أنَّ العبد الصالح عيسى بن مريم (عليه السلام) قال: ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾[٣]. وجاء عن الرسول الكريم

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٣٢١.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٩٣.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٦٤.

في كون الصلاة براق السير ومرقاة عروج الرّوح إليه ،تعالى،: "الصلاة معراج المؤمن»[١]. وهي عمود الدين: «الصلاة عمود الدين»[٢]، وهي باب الرحمة الواسع، جاء عن الصادق(ع): "إذا قام المصلّي إلى الصلاة نزلت عليه الرحمة من أعنان السماء إلى أعنان الأرض، وحفّت به الملائكة، وناداه ملك لو يعلم هذا المصلّي ما في الصلاة ما انفتل»[٣].

وأداء الصلاة ليس واحداً أو متوحداً -أو على مضمون واحد- لدى كل الناس، فلكلّ إنسان صلاته المختصّة به، لا بمعنى أنها مختلفة شكلاً وطقوساً عن غيره، بل بمعنى أنه لكل واحد وعيه لها ونصيبه منها، ومستوى ودرجة إيمانه وقربه منه عزَّ وجلَّ. فبعض الناس قد يكون خاشعاً محققاً لشروطها المعنويَّة والرُّوحيّة، مستحقاً لفيوضاته ،تعالى، ورجمته الكبيرة، وهناك بعض آخر لا يستحق ولا ينال من حظاً ولا نصيباً طيباً من صلاه.. جاء عن النبيّ محمد(ص): «إنّ الرجلين من أمّتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحدٌ، وإنّ ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض»[٤].

---

١ - الشيخ الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، ، تحقيق وتصحيح الشيخ حسن بن علي، ج٦، ص٣١٧

٢ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٧، ص ١٦٢.

٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٦٤.

٤ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٤، ص٩٨.

● المبحث الثالث:
ما السرّ وراء "التفاوت في الصلاة"؟

يتضح من الحديث السابق عن النبيّ الكريم وجود تفاوت وتمييز في صلاة الناس، كما شرحنا.. وأصل منشأ هذا التفاوت في الصلاة هو مراعاة آداب الصلاة وشروطها وعدمه. فللصلاة أحكامٌ وآدابٌ ظاهريّة وأخرى باطنية روحية عميقة.. فأما الظاهرية منها: فهي تتمثل في الطهارة، والقراءة، والقيام، والركوع، والسجود، والتشهّد، وينبغي على الإنسان العابد أن يلتزم بها ويراعيها في مظهر صلاته، حيث يكون بتلك المراعاة قد أدّى ما افترضه الله عليه، فلا يعذّب على تركه للصلاة، يقول تعالى: ﴿ما سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلّينَ﴾[المدّثر: ٤٢-٤٣]. وأما الآداب الباطنية للصلاة، فقد لا يحققها إلا القلة من المصلين، وهي تتمثل في التعمق والحضور القلبيّ والرُّوحيّ والتفكر والتأمل والعبادة المستمرة.. جاء عن الإمام الخميني: "اعلم أنّ للصلاة غير هذه الصورة لمعنى، ولها دون هذا الظاهر باطناً، وكما أنّ لظاهرها آداباً يؤدي عدم رعايتها إلى بطلان الصلاة الصوريّة (الظاهريَّة) أو نقصانها، فإنّ لباطنها آداباً قلبيّة باطنية يلزم من عدم رعايتها بطلان أو نقص الصلاة المعنويَّة، كما أنّه برعاية تلك الآداب تكون الصلاة ذات روح ملكوتي»[1].

---

١ - الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، المقدمة, ص١٦.

وقد لاحظنا وقرأنا في تاريخ سير الأئمَّة وأهل البيت(ع) أنهم كانوا كانوا(ع) يقيمون الصلاة على أصولها الظاهريّة والباطنيّة، حيث كان يتغير لون أحدهم عندما يحين وقت أداء الصلاة، وترتعد فرائصهم، ويغشى عليهم، ويذهلون عن كل ما سوى الله بصورة كاملة.. جاء عن الإمام الصادق(ع): «كان علي بن الحسين(ع) إذا قام إلى الصلاة تغيّر لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يرفضّ عرقاً»[١]. وفي عدّة الداعي روي: "أنّ إبراهيم(ع) كان يُسمع تأوّهه على حدّ ميل حتى مدحه الله بقوله: إنّ إبراهيم لحليم أوّاه، وكان في صلاته يسمع له أزيز كأزيز المرجل، وكذلك يسمع من صدر سيدنا رسول الله(ص)عليه وآله) مثل ذلك، وكانت فاطمة (عليها السلام) تنهج في الصلاة من خيفة الله"[٢].

مما تقدم يمكن أنْ نستنتج أن شكل الصلاة في الشكل والطقوس لا يمثل حقيقتها الجوهرية وما فيها من عمق وروحانية وإشراقات ربانيَّة لا يعيشها سوى العابد الزاهد المداوم الخاشع.. وإذا كان بإمكان أيِّ إنسان أن يقوم ويؤدي شروط الصلاة الخارجيّة من قيام وركوع وسجود، فإنَّ قلة قليلة جداً هي التي تعيش حقيقتها الباطنية الرُّوحيّة العميقة، والتي يتجسد من خلالها معنى أنها تنهي عن كل سوء وذنب وفاحشة صغيرها وكبيرها، قال ،تعالى،: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾[العنكبوت: ٤٥]..

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص٣٠٠.

٢ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٤، ص١٠٠.

نعم، للصلاة محددات وآداب وسلوكيَّات باطنيّة ومعنويَّة بمراعاتها يفوز الإنسان ويكون من المفلحين ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[المؤمنين: ١ - ٢].

الفصل التاسع عشر

الآداب الرُّوحيّة والمعنويَّة للصلاة

● المبحث الأول:
التّوجّه إلى عزّ الرّبوبيّة وذلّ العبوديَّة

للصلاة أخلاقيات وآداب روحية وقلبيّة مستحبة بل واجبة، ينبغي أن يلتزم بها المصلي وهو واقف بين يدي ربه، يدعوه ويبتهل إليه.. ويأتي على رأسها شعوره النفسي العارم بأنه مجرد مخلوق ضعيف وعبد ذليل لا قيمة لوجوده تجاه خالقه الغني القوي العظيم، ذو الجلال والعزة، يقول ،تعالى،: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميدُ**﴾[فاطر: ١٥].. والعبوديَّة ليس مظهراً سلبياً وناقصاً للإنسان، بل هي أعلى مراتب الكمال ومن أرقى درجات الإنسانيَّة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**سُبْحانَ الَّذى أَسْرى بِعَبْدِه**﴾[الإسراء: ١].

ولا يمكن لأيٍّ كانَ أنْ يصل إلى هذا المقام الإنساني العالي، قال إمامنا الصادق(ع): "العبوديَّة جوهرة، كنهها الربوبية، فما فقد في العبوديَّة وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبوديَّة"[1]. وهناك إشارة مُهمَّة للإمام الخميني الراحل يتحدث فيها عن هذه الفكرة الجوهرية:

---

١ - منسوب للإمام الصادق(ع)، مصباح الشريعة، باب العبودية.

"فمن سعى بخطوة العبوديَّة، ووسم ناصيته بسمة ذلّها، سيجد سبيل الوصول إلى عزّ الربوبية. وطريق الوصول إلى الحقائق الربوبية هو السير في مدارج العبوديَّة؛ ....."[١].

● المبحث الثاني: الخشوع

وهو يعني كمال الانقطاع إليه، تعالى، وكمال الخضوع له، بحيث يكون ممزوجاً بالخوف والحب، كما يقول الإمام الخميني(قده): "من الأمور الضرورية للسالك واللازمة لجميع العبادات لا سيما الصلاة هو الخشوع، وحقيقته الخضوع التام الممزوج بالحبّ أو الخوف"[٢].. إنَّه الإدراك الواعي لعظمة الخالق، عزَّ وجلَّ، وجماله وهيبته، وقوة سطوته.. فهذا هو أصل منشأ ذلك الخضوع التام له ،تعالى..﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ**﴾[المؤمنون: ١-٢]. جاء عن الإمام الصادق(ع): "إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والإقبال في صلاتك، فإن الله، تعالى، يقول: ﴿**الَّذينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ**﴾.

---

١ - روح الله الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الفصل الأول، في التوجه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية، ص ٣٣ - ٣٤.

٢ - الإمام الخميني (قده)، الآداب المعنوية للصلاة، في بيان الخشوع، ص ٤٠.

● المبحث الثالث: الطُّمأنينة

تُعدُّ الطمأنينة النفسية وشعور المصلي بالسكينة الرُّوحيّة من الأخلاقيّات المُهمَّة للصلاة، بل من أهم آدابها وسننها.. ويقصد بها أن يمارس العابد فريضته التعبُّديَّة وهو مطمئن في خاطره وساكناً في قلبه وخاشعاً في روحيَّته.. فإن لم يطمئن ويسكن ويخشع، فهذا يعني أنه لم يستفد من عبادته.. لأن غاية العبادة تكمن في السكينة والخشوع وتأثر القلب والجوارح.. جاء عن الإمام الخميني (قده) في هذا الصدد:

"من الآداب القلبيَّة الهامّة في العبادات خصوصاً ما يتميّز منها بالذكر، الطمأنينة. فهي إشارةٌ إلى أداء السالك العبادة بسكينة قلبٍ، واطمئنان بال....."[1]. ويورد الإمام مثالاً سلوكياً عملياً على الطريقة التي يمكن للقلب بموجبها أن يحصّل طمأنينته: "إذا قال أحدٌ الذّكر الشريف (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بسكينة القلب واطمئنانه، وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف، فإنّ لسان القلب ينطق بالتدريج حتى يصبح لسان الظاهر تابعاً للسان القلب"[2].

---

١ - روح الله الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، في بيان الطمأنينة، ص ١٣.
٢ - الآداب المعنوية للصلاة، م، س، المقالة الأولى، الفصل الرابع، ص ٣١.

● المبحث الرابع:

التفهيم

ويقصد به أن يدرك المصلي ويعي حقيقة عبادته وما يمارس من صلاة في كلماتها ومعاني آياتها وأدعيتها، طبعاً بحسب ما يملك من طاقة ووعي وحضور. جاء عن الإمام علي(ع) في هذا المجال، وهو يتحدث عن التلاوة وآدابها: "ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة"[١]. والتفهيم له حد أدنى وهو الفهم الإجمالي لمعنى الصلاة، وهو أن القرآن الكريم صادر عنه، تعالى، وأدعيته مذكراتٌ بالحقّ، تعالى، والعبادات طاعات لأوامر الله.. وعن هذه النقطة يتحدث الإمام الخميني:" التفهيم من الآداب القلبيَّة للعبادات لا سيما التي تتميّز منها بالذكر، ويكون بأن يتصوّر الإنسان قلبه في بداية الأمر كطفلٍ لم ينطلقْ لسانه بعد، وأنّ عليه أنْ يعلّمه النطق.. فيقوم بتعليم القلب كلّ ذكرٍ من الأذكار، وكل وردٍ من الأوراد، وكل حقيقةٍ من حقائق العبادة، وكل سرٍّ من أسرارها بمنتهى الدقة.. ويسعى في تفهيمه الحقيقة التي يدركها هو في كلّ مرتبة من مراتب الكمال التي يكون فيها. والنتيجة المتوخّاة من هذا التفهيم أنّ لسان القلب ستحلّ عقدته بعد مدةٍ من المواظبة عليه ويصبحُ القلبُ ذاكراً ومتذكّراً"[٢].

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٦، ص٢٠٧

٢ - الإمام روح الله الموسوي الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الفصل السابع، في بيان التفهيم، ص٤٢.

● المبحث الخامس:
كيفيّة حضور القلب في الصلاة

«وهو من الآداب القلبيَّة المُهمَّة التي يمكن أن يكون كثيرٌ من الآداب مقدمةً له، والعبادة بدونه ليس لها روح، وهو بنفسه مفتاح قفل الكمالات، وباب أبواب السعادات"[١]، بحسب ما يقوله الخميني(قده). ويقصد به عدم الغفلة والسهو والتلهي خلال أداء العبادة، بل أن يحضر قلب الإنسان في صلاته.. يصلي ويأنس ويطمئن.. قال النبيّ الكريم: "اعبد الله كأنك تراه، وإن لم تكن تراه فإنَّه يراك"[٢]. وهذه من أعلى درجات عبادة الصلاة، حيث إنَّ المصلي عندما يقف بين يدي ربه لا بد له من إغلاق كافة مسامع قلبه إلا عنه ،تعالى،.. جاء عن الإمام الصادق(ع): "إذا أحرمت في الصلاة فأقبل إليها، لأنّك إن أقبلت أقبل الله إليك، وإن أعرضت أعرض الله عنك، فربما لا يرفع من الصلاة إلاَّ ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبل إليها، وإن الله لا يعطي الغافل شيئاً"[٣].

---

١ - الآداب المعنوية للصلاة، م، س، ص٧٢.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٠٤.
٣ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٣، ص٥٧.

● المبحث السادس:
أسباب عدم حضور القلب في الصلاة

إنَّ الاستغراق في الدنيا وتشتت الذهن والخيال، هما من أهم موانع حضور القلب في الصلاة، بحسب ما يقوله الإمام الخميني عن تجربة عرفانيَّة ذاتيَّة.. يقول(قده): «وربما يكون تشتّت الخاطر والمانع عن حضور القلب من الأمور الباطنية. وهذا على نحو كلّي له منشآن أساسيّان، ترجع معظم الأسباب إليهما، الأوّل: أنّ طائر الخيال هو بنفسه فرّار، كعصفورٍ يقفز من غصنٍ إلى غصنٍ..... والثاني: هو حبّ الدنيا وتعلّق الخاطر بالحيثيَّات الدنيويّة التي هي رأس الخطايا وأمّ الأمراض الباطنيّة....»[1].

● المبحث السابع:
النشاط والبهجة

إنَّ قيام الإنسان بالعبادة عن حالة ابتهاج وسعادة ونشاط كبير، له تأثير كبير على روحه وطاقته، وهذا ما ذكره الإمام الخميني(قده): «من الآداب القلبيَّة للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة بل هو موجبٌ لفتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات، أن يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاطٍ وبهجة في قلبه وفرح وانبساط في خاطره، ويحترز احترازاً شديداً

١ - الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، الفصل العاشر، في بيان تحصيل حضور القلب، ص٥٥.

من الإتيان بالعبادة مع الكسل وإدبار النفس»[١]. كما أن الله ،تعالى، تحدث عن الموضوع في الآية الكريمة: ﴿**وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ**﴾[التوبة: ٥٤].. وجاء عن إمامنا جعفر الصادق(ع): «لا تُكرهوا إلى أنفسكم العبادة»[٢].. وفي رواية أخرى يقول(ع): «قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «يا عليّ: إنَّ هذا الدين متينٌ فأوغل فيه برفقٍ، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك"[٣].

١ - الآداب المعنوية، م، س، الفصل السادس، في بيان النشاط والبهجة، ص٧٣.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٨٦.
٣ - الكافي، م، س، ج٢، ص٨٧.

الفصل العشرون

الدُّعاء وسيلة الوصال

● المبحث الأول:
أهمِّيَّة الدعاء وقيمته

يُعدُّ الدعاء في الإسلام روح العبادة، وهو يعني إقبال الإنسان العابد على ربه الخالق الكريم، ليدعوه ويبتهل إليه.. وأصل العبادة أنَّها هي نفسها الغاية التي خلق الإنسان من أجلها.. قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات: ٥٦].. والعبادة تجذب الإنسان العابد الملتزم بمعايير العبادة إلى ربه، وتربطه به بأشد الرباط..

إنَّ العبادة قصد وغاية وتوجه للخالق العظيم بغاية التقرب منه ونيل رضاه، والدعاء هو من أهم وأبرز مصاديق الانشداد إليه والارتباط به، تعالى،.. جاء عن الصادق(ع): "عليكم بالدعاء، فإنَّكم لا تتقربون بمثله"[1].

ولعل من أكثر اللحظات التي يكون فيه المرء قريباً من ربه، هي لحظات الدعاء حيث تكون حاجة الإنسان إلى الله كبيرة، واضطراره إليه عظيمًا.. ويريد من ربه أنْ يحقق له غايته.. يقول تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ**

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٣، ص٢٩٣.

الإنسان لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾[سورة العلق: ٦-٧].. وهو يوضح في الآية أنَّ الإنسان الذي يظن واهماً أنه بات غنياً ومالكاً، هو الذي قد يصل إلى مرحلة الطغيان والاستغناء النفسي والسلوكي.. ولا يقبل على ربه إلا بعد شعوره بالحاجة والضعف، حيث لا غنى عنه ،تعالى،: ﴿**أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى۞ فلا غنى للإنسان عن الله۞ بل الإنسان فقرٌ كلّه إلى الله يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميد**﴾ [فاطر: ١٥].. نعم إنَّه الغرور النفسي والتوهُّم الفكري الحياتيّ، هو الذي يدفع المرء للاستغناء..

إنَّ الدعاء إذاً هو قلب وجوهر العبادة وروحها وأصلها، جاء عن النبيّ(ص): "الدعاء مخ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحد"[١].. وفي رواية أخرى: "ما من شيء أكرم على الله ،تعالى، من الدعاء"[٢].

وسئل الإمام الباقر(عليه السلام) أي العبادة أفضل؟! فقال: "ما مِن شيء أفضل عند الله، عزَّ وجلَّ، من أن يُسْأَلَ ويُطلب مما عنده وما أحد أبغض إلى الله، عزَّ وجلَّ، ممّن يستكبر عن عبادته ولا يَسأَلُ ما عنده"[٣].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٣، ص٣٠٠.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٤.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٦٦.

● المبحث الثاني:
الآداب الرُّوحيّة والعمليَّة للدعاء

للدعاء شروط ومعايير ونواظم روحية وآداب وسنن عملية يجب الخضوع لها وتمثلها ومراعاتها، وذلك من أجل نيل ثواب الدعاء، وتحقيقه لغاياته وأهدافه.. جاء عن إمامنا الصادق(ع): "احفظ أدب الدعاء وانظر من تدعو، كيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقّق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطّلاعه على سرك وما تكون فيه من الحق والباطل،..... الحديث"[1].

ومن أهم تلك المعايير والشروط الخاصَّة بالدعاء:

أولاً: البدء بالبسملة وبالصلاة على محمد وآله والختم بها:

وهي من الآداب المهمَّة والحيوية للإنسان العابد، جاء عن النبيّ الكريم(ص): «لا يردّ دعاء أوّله بسم الله الرحمن الرحيم"[2]. وجاء عن إمامنا جعفر الصادق(ع): "لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّي على محمد وآل محمد"[3].

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٢٢.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٣، ص ٣١٣.
٣ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٣، ص٣١٢.

ثانيًا: معرفة الله:

لا يمكن أنْ يتحقق فعل الاستجابة لأيِّ دعاء، ما لم يعِ ويعرف صاحبه ربه وخالقه، ويسلم أمره له، ويؤمن بقدرته وسلطته العظيمة، وأنه قادر على تحقيق طلبه.. فقد جاء عن الرسول(ص): "لو عرفتم الله حقّ معرفته، لزالت الجبال بدعائكم"[١]. وجاء عن إمامنا الصادق(ع)عندما قرأ قوله ،تعالى: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾، فسئل: ما لنا ندعو ولا يستجاب لنا؟ فقال(ع): لأنّكم تدعون من لا تعرفون، وتسألون ما لا تفهمون"[٢].

ثالثًا: حسن الظنّ بالله:

وهي قيمة من قيم الإيمان بالله، عزَّ وجلَّ، وشعبة منه، فهو، عزَّ وجلَّ، يمنح عباده بقدر حسن ظنّهم به، وإيمانهم العميق الواصل درجة اليقين برحمته وكرمه اللذين لا حدود لهما. جاء في الحديث القدسي: "أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً"[٣]. وعن إمامنا جعفر الصادق(ع) قال: "لا يزال العبد بخير ورجاء ورحمة من الله، عزَّ وجلَّ، ما لم يستجعل فيقنط، ويترك الدعاء، وقيل له: كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الإجابة"[٤].

---

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٣٠١.
٢ - السيد ابن طاووس، فلاح السائل، ص١٠٧.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٧٢.
٤ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٩٠.

رابعًا: إقبال القلب على الله:

تكمنُ حقيقة الدعاء في كونه حالة إقبال روحي ونفسي وقلبيّ على الله، تعالى، طلباً لرحمته وعفوه، وإذا ما انشغل القلب عن غير الله، تعالى، بأي انشغال دنيوي، فلن يتحقق طلب الدعاء أبداً، ولن يستجيب الله له.. جاء عن الإمام الصادق(ع): "إنّ الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب دعاءً بظهر قلبٍ ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثّم استيقن الإجابة"[١].

خامسًا: الإخلاص لله، تعالى،:

إنَّ الإخلاص أصل دينيٌّ، وعلى من يبتهل ويدعو الله أنْ يكون إيمانه عميقاً ومخلصاً له وحده، ولا يشرك به أو معه أحداً.. لأنّ الله، تعالى، لا يقبل إلَّا ما كان له خالصاً، جاء عن الإمام السجاد علي زين العابدين(ع): "من لم يرج الناس في شيء وردّ أمره إلى الله عزَّ وجلَّ في جميع أموره استجاب الله عزَّ وجلَّ له في كلّ شيء"[٢].

سادسًا: المداومةُ على فعل الدعاء في الشدّة والرخاء:

جاء عن الإمام الصادق(ع): "ينبغي للمؤمن أنْ يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من

---

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٠٥.

٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص١١٠.

دعائه في الشدة، ليس إذا أعطي فترَ، فلا تملّ الدعاء فإنّه من الله عزَّ وجلَّ بمكان"[١]. وعنه(ع): "من سَرَّه أن يُستجاب له في الشدّة فليُكثر الدعاء في الرخاء"[٢].

سابعًا: اقتران الدعاء بالعمل:

جاء في وصية من وصايا الرسول الكريم(ص) لأبي ذر: "يا أبا ذر! مثل الذي يدعو بغير عملٍ كمثل الذي يرمي بغير وتر"[٣]. وروي أنّ رجلاً قال للصادق(ع): "لأقعدنّ في بيتي ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ ربي، فأمَّا رزقي فسيأتينِي. فقال(ع): هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم"[٤].

ثامنًا: اجتناب الذنوب:

إنَّ الله لا يقبل توبة ودعاء من يقبل عليه وهو غارق في معاصي الدنيا، ومعرض عن أمره وحكمه.. جاء عن إمامنا جعفر الصادق(ع) أنّه قال: "إنّ العبد يسأل الله، تعالى، الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجلٍ قريب، أو إلى وقتٍ بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله ،تعالى، للملك، لا تقض

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٧، ص٦١.
٢ - وسائل الشيعة، م، س، ج٧، ص٤١.
٣ - وسائل الشيعة، م، س، ج٧، ص٨٤.
٤ - وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج٧، ص١٢٥.

حاجته، واحرمه إياها، فإنّه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان منّي"[١].

تاسعًا: بثّ الحاجة بين يدي الله:

جاء في الحديث عن الإمام الصادق(ع): "إن الله، تبارك وتعالى، يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكن يحبّ أن يبثّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجاتك، وما من شيءٍ أحبّ إلى الله من أن يُسأل"[٢].

عاشرًا: الإلحاح في الدعاء:

جاء عن النبيّ الأكرم(ص) "إنَّ الله يحبّ الملحّين في الدعاء"[٣].. وجاء عن إمامنا محمد الباقر(ع): "إنّ الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعضٍ في المسألة، وأحبّ ذلك لنفسه"[٤].

حادي عشر: الدعاء للآخرين:

جاء عن نبينا الكريم(ص): "من دعا لمؤمنٍ بظهر الغيب قال الملك:

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٧١.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.
٣ - بحار الأنوار، م، س، ج٩٠، ص٣٠٠
٤ - بحار الأنوار، م، س، ج٧٥، ص١٧٣.

فَلَكَ مثل ذلك"[١]. وعن الإمام الصادق(ع): "دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب يدرّ الرزق، ويدفع المكروه"[٢].

ثاني عشر: التوجّه إلى معاني الدعاء:

إنَّ على الإنسان العابد أنْ يدعو عن وعي، غير غافل عما يقوله ويتلفّظ به من كلمات يرجو بها وجه ربه الكريم.. جاء عن إمامنا الصادق(ع): "إنّ الله لا يستجيب دعاءً بظهر قلبٍ ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثمّ استيقن بالإجابة"[٣].

ثالث عشر: الدعاء بالمأثور:

أيْ بالأدعية التي وصلتْ إلينا من الرسول الكريم وأهل بيته الطاهرين.. يقول العارف الإمام الخميني(قده): "إنّ الأدعية والمناجاة التي وصلتنا عن الأئمة المعصومين هي أعظم أدلة إلى معرفة الله جلّ وعلا، وأسمى مفاتيح العبوديَّة وأرفع رابطة بين الحقّ والخلق. كما أنّها تشتمل في طياتها على المعارف الإلهيَّة، وتمثّل أيضاً وسيلةً ابتكرها أهل بيت الوحي للأنس بالله، جلّت عظمته، فضلاً عن أنّها تمثّل نموذجاً لحال أصحاب القلوب وأرباب السلوك"[٤].

---

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٧، ص١٠٩.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٥٠٧.
٣ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٧٣.
٤ - روح الله الخميني، وصايا عرفانية، ص ١٩ - ٢٠.

● المبحث الثالث:
موانع استجابة الدعاء

يجب على المؤمن أنْ يتبعد عما يحول دون تحقق فعل الاستجابة للدعاء.. جاء في دعاء كميل: "فأسألك بعزّتك ألاَّ يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي"، و"اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء".. ومن أهم تلك الموانع:

أولاً: الشرك بالله، تعالى،:

لا ينجح الدعاء والابتهال إلى الله، تعالى،، إلاَّ إذا كانت النية معقودة والعزم قائمًا في التوجه إليه وحده، تعالى، وأنه لا يوجد أي مؤثر آخر سواه عزَّ وجلَّ.. وإلا فإن مجرد اعتقاد الإنسان أنَّ هناك مؤثرية أخرى، في تدبير الأمور وتسييرها، غير الله، تعالى، فهذا يعد شركاً بالله، وهو من أهم موانع استجابة الدعاء.. جاء عن الصادق(ع): "أوحى الله،عزَّ وجلَّ، إلى داود(عليه السلام): ما اعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحدٍ من خلقي عرفتُ ذلك من نيّته..... الحديث"[1]. والسبب في ذلك أنّه عندما يسأل الإنسان ربّه أمراً ما وقلبه متعلقٌ بالأسباب ومعتمدٌ عليها فهذا ينافي الإخلاص له ،تعالى، وهو القائل: ﴿**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين**﴾[غافر: ١٤]، ﴿

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص٦٣.

وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمينَ﴾[يونس: ١٠٦].

ثانيًا الذنوب والمعاصي:

وهي التي تمنع الإنسان من الانفتاح القلبيّ والرُّوحيّ على الله، تعالى، ولهذا ينبغي على المرء أن يباشر فوراً في توبته واستغفاره في حال وقع أسير أيِّ ذنب ولو كان صغيراً، جاء عن إمامنا الباقر(ع): "إنّ العبد يسأل الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجلٍ قريب أو إلى وقتٍ بطيء، فيذنب العبد ذنباً فيقول الله، تبارك وتعالى، للملك لا تقض حاجته واحرمه إياها، فإنه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان مني"[١].

ثالثًا: **سؤال ما فيه الضرر:**

هناك بعض الناس يسألون الله، تعالى، عن أمر ما، بل ويلحّون في طلبهم ودعائهم، ولكنه، تعالى، لحكمته ورحمته وعلمه بخفايا الأمر وعواقبه التي قد تكون وخيمة على العبد، يؤخرهم ولا ينفذ طلبهم، أو قد يبدله بما هو أفضل منه: ﴿**وَيَدْعُ الإنسان بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإنسان عَجُولاً**﴾[الإسراء: ١١].

---

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٥٨.

رابعاً: عدم الصّدق في الطلب:

إنَّ الصدق في طلب الدعاء من لوازم الاستجابة له وتلبية طلب صاحب الدعاء.. لهذا يجب أن تنعقد النية الصالحة مع الصدق في الدعاء كي يستجيب الله له.. جاء عن رسول الله(ص): "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة"[١]. وعن إمامنا جعفر الصادق(ع): "إنّ الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك، ثمّ استيقن بالإجابة"[٢].

١ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٧،ص٥٣.
٢ - الشيخ الكليني، الكافي، ج٢ ص٤٧٣.

الفصل الواحد والعشرون

الصّبر باب اللقاء

● المبحث الأول:
قيمة الصّبر والاستعانة به

قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ**﴾[البقرة: ٤٥ - ٤٦].. وفي هذه الآية يحرّض، تعالى، الإنسان ويحثه على الالتزام بالصبر والصلاة وذلك من أجل مواجهة هوى النفس وميلها للقوى الشهوية والغضبية، مؤكداً أن استعانته بهما، مسألة صعبة، ولا تنعقد وتتحقق إلا للخاشعين: ﴿وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ﴾، والخاشعون هم الذين آمنوا أنهم ملاقو ربّهم وأنّهم إليه راجعون. لأن الإيمان بلقاء الله، تعالى، وأن المرء عائد إليه، هو الذي يفجر في قلب الناس تلك الحالة الرُّوحيّة العالية من الخشوع والرهبة والإحساس بالمسؤوليَّة, وهذا يدفعه لفعل الخيرات والسير في طرق المحبَّة والتسامح والعمل على إحقاق الحقوق والسعي للعدل دوماً وأبداً.. نعم يمكن من خلال الصبر والصلاة والتغلب على الأهواء الشخصيَّة والمشكلات التي قد تنجم عنها، فهما دواء فعَّال لمرض الهوى القلبيّ والرُّوحيّ البشريّ.. فالصّبر يدفعُ المرءَ إلى الصمود والتحدِّي والثبات والاستقامة، والصلاة وسيلته للارتباط الوثيق بخالقه، سنده القوي المكين.

● المبحث الثاني:
جَوْهر الصّبر وحقيقته

الصبر هو امتلاك المرء لقدرة التحمل والثبات في مواجهة أهواء نفسه وشهواتها ومغريات الدنيا الواسعة التي قد تسقطه في أسفل سافلين.. وهو (أي الصبر) يتقوى بالمجاهدة والإيمان والعمل الصالح، والإتيان بالعبادات والطاعات.. بحيث أنه عند التعرّض لأنواع الشدائد ونزول المصائب عليه، لا يخاف ولا يسقط من أول لحظة، بل يثبت ويواجه، ويتحمّل ويقاوم إلى أن تنجلي ظلمة المحنة، أو يكتب له النّصر على عدوّه، فيؤتيه الله ،تعالى، أجره مرّتين جزاءً بما صبر: ﴿**أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا**﴾[القصص: ٥٤].

إنَّ الصبر هو الصمود والمواجهة وقدرة التحمل الإيمانيَّة أمام المشكلات والتحدِّيات ومختلف التعقيدات والوقائع الحياتيّة والحوادث الصعبة والمريرة، وعدم الانهيار وترك الجزع والفزع، لأجل بلوغ الأهداف الإلهيَّة العليا والغايات الإنسانيَّة السامية.. قال، تعالى،: ﴿**إِنَّ الَّذينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[فصّلت: ٣٠].

● المبحث الثالث:
الصّبر وموضوع "القيادة الإلهيَّة"

يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ**﴾[السجدة: ٢٤]. تحدثنا الآية الكريمة عن شرطين أو صفتين ينبغي على أيِّ إمام أو قائد أنْ يحوز عليهما ويتمتع بهما لكي يصبح مؤهلاً وقادراً على قيادة الناس وإدارة مختلف شؤونهم الحياتيّة على مستوى الدين والدنيا، الأولى هي صفة الإيمان واليقين، والثانية صفة الصبر والثبات والصمود والاستقامة.

فالإمامة والقيادة ليست مواقع قياديَّة دنيويَّة بل هي مناصب إلهية يختص بها الله، تعالى، بعض عباده، ولا علاقة للناس بها.. خصوصاً وأن هداية الناس وعرض رسالة الله ،تعالى، عليهم والسعي في طريق إصلاح حياتهم، هي من القضايا التي تتوقف على منصب الإمامة والقيادة الربانيَّة.. إذ لا بد أنْ يكون الإمام مؤمناً موقناً يعيش التقوى في حياته الخاصَّة والعامَّة، ويتحرك في خط الإيمان اليقيني الحقيقيّ.. وأن يكون مطلعاً على أحوال الناس الدنيويَّة، ويملك الصبر والوعي والقدرة والحكمة.. جاء عن إمامنا جعفر الصادق(ع): «إنّ الأئمّة في كتاب اللّه، عزَّ وجلَّ، إمامان: قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿**وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا**﴾، لا بأمر الناس، يقدّمون أمر اللّه قبل أمرهم، وحكم اللّه قبل حكمهم، وقال: ﴿**وجعلناهم أئمّة يدعون إلى النار**﴾، يقدّمون أمرهم

قبل أمر اللّه، وحكمهم قبل حكم اللّه، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب اللّه عزَّ وجلَّ"[١]. فلا يمكن أنْ يصل الإمام والهادي إلى هذا المقام إلاّ في ظلّ اليقين والاستقامة فقط. وقد روي عن الإمام الصادق(ع) أنّه قال لأحد أصحابه: "إنَّ من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً، ثّم قال: عليك بالصّبر في جميع أمورك فإنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث محمداً(ص) فأمره بالصّبر والرفقِ، فقال: ﴿**واصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلا**﴾.

● المبحث الرابع: درجات الصّبر ومراتبه

جاء عن الرسول(ص) قال: "الصّبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش»[٢].

---

١ - الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢١٦.
٢ - الكافي، مصدر نفسه، ج٢، ص٩١.

من هذا الحديث الشريف نعلم أنّ للصّبر ثلاثة مستويات:

الدرجة الأولى - الصّبر على البلايا والكوارث والمصائب:

قوله ،تعالى،: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة: ١٥٥]. فالابتلاءات والكوارث تحدث باستمرار على هذه الأرض، سواء أكانت كوارث طبيعية أم من صنع البشر، والإنسان سيبقى في حالة مواجهة معها، فالأمراض والموت والفقد وغيرها، يتطلب من الإنسان قدرة على التحمل والصبر الذي هو قيمة إيجابيَّة عالية وعد الله الإنسان الصابر بثوابها وأجرها، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[البقرة: ١٧٧]. ويقول النبيّ الكريم(ص) قال: "قال الله، عزَّ وجلَّ: إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أنْ أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»[1].

الدرجة الثانية-الصّبر على الطاعة:

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ**

١ - الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٨.

لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥]. والصبر هنا هو صبر على أداء الفرائض والواجبات الدِّينيّة وعلى رأسها الصلاة والالتزام بأحكام الشرع، فهذه الالتزامات تحتاج للصبر والمجاهدة في مواجهة النفس الشهوانية والنفس الأمّارة بالسوء.. قال عزَّ وجلَّ: **﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾**[محمد: ٣٣].

الدرجة الثالثة-الصّبر على المعصية:

ويعني أنْ يصبر المرء على الحلال وفعل العمل الخيّر، ويصرّ عليه عندما تحاول نفسه الأمارة بالسوء أن تتلاعب به وتدفعه للمعصية وارتكاب الآثام وفعل الحرام، فلا يخضع لها ولا ينصاع لطلباتها المزخرفة بملذات الدنيا.. يقول النبيّ(ص) بعد أنْ سُئل عن أي الهجرة أفضل: «من هجر السوء»[1].

● المبحث الخامس:
نتائج الصّبر بحسب ما يراها القرآن

هناك آيات كثيرة ذكرت موضوع الصبر في كتاب الله.. وما نود لفت النظر إليه هنا هو نتائج ومآلات فضيلة الصبر ومدى تأثيرها على حياة الإنسان

١ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار،ج٧٤، ص٧٢.

وأعماله ومستقبله ومصيره.. ونورد في الآتي بعض تلك النتائج الطيبة:

١. الصابرون مُعفَون من الحساب: ﴿**إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ**﴾[الزمر: ١٠].

٢. الله، عزَّ وجلَّ، يصلّي على الصابرين: ﴿**الَّذينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[البقرة: ١٥٦ - ١٥٧].

٣. الله، تعالى، يحبّ عباده الصابرين: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرينَ**﴾[آل عمران: ١٤٦].

٤. الصّبر مفتاح النصر والغلبة: ﴿**ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلينَ**﴾[الأنعام: ٣٤]. وقوله، تعالى،: ﴿**يا أَيُّهَا النبيّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**﴾[الأنفال: ٦٥].

٥. الله، عزَّ وجلَّ، مع الصابرين أينما ولّوا وجوههم: ﴿**واصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرينَ**﴾[الأنفال: ٤٦].

٦. ذنوب الصّابرين مغفورة: ﴿**إِلَّا الَّذينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبيرٌ**﴾[هود: ١١].

٧. الله، تعالى، يثيب الصّابرين بأفضل ممّا كانوا يعملون: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّ**

الَّذينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٦].

٨. أنّ الله، عزَّ وجلَّ، سيجعل مثواهم جنّة النعيم: ﴿**وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريراً**﴾[الإنسان: ١٢].

٩. أنّ الصابرين هم المفلحون والرابحون: ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفى خُسْرٍ إِلَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبرِ**﴾[العصر: ١-٣].

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب(ع)، شرح وتحقيق: محمد عبده، دار البلاغة، بيروت، ط٥، عام١٤١٢هـ.ق.
- الصّحيفة السّجَّاديَّة للإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع)، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة عام ١٩٩٩م.
- ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، تحقيق وشرح: نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، شرح الشرح: قطب الدين محمد بن محمد أبي جعفر الرازي، الناشر: مطبعة القدس، إيران، ط١، عام١٣٨٣ ش.
- الحرُّ العاملي: وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث في قم، مطبعة مهر، إيران، طبعة٢، عام ١٤١٤هـ.ق.
- حسين النوري الطَّبَرْسي: مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث، ط٢، عام ١٩٨٨م.
- روح الله الموسوي الخميني: الآداب المعنويَّة للصلاة، منشورات مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة عام ١٩٨٦م.
- روح الله الموسوي الخميني: الأربعون حديثاً، دار زين العابدين، بيروت، الطبعة الأولى، عام ٢٠١٠م.
- روح الله الموسوي الخميني: وصايا عرفانيَّة، الناشر: مركز باء

للدراسات، بيروت، طبعة عام ٢٠٠١م.

■ عبد الواحد التميمي الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، طهران، ط٢، عام ١٤٢٠هـ.ق.

■ علي الطبرسي: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تحقيق: مهدي هوشمند، نشر وطباعة دار الحديث، طهران، ط١، عام ١٤١٨هـ. ق.

■ علي النمازي الشاهرودي: مستدرك سفينة البحار، تحقيق وتصحيح: حسن بن علي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين بقم، إيران، طبعة عام ١٤١٩هـ. ق.

■ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، الناشر: مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، عام ١٩٨٣م.

■ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر دار الكتب الإسلاميَّة /مطبعة الحيدري، طهران، ط٥، عام ١٣٦٣هـ.ش.

الفهرس

مقدّمة ٥

الفصل الأول: العِلّة من وراء عملية خَلْق الإنسان! ٧

المبحث الأول: الحكمةُ الإلهيَّة وغاية الإنسان ٩

المبحث الثاني: سبيل معرفة الغاية والهدف ١١

المبحث الثالث: ماهيَّة الفطرة وأهم مميزاتها ١٢

المبحث الرابع: غاية الخلْق البشريّ ١٣

المبحث الخامس: الله ،تعالى، هو الغاية والمنتهى ١٥

الفصل الثّاني: كمالُ الإنسان ١٩

المبحث الأول: الكدحُ الارتقائيّ إلى اللهِ وكمال اللقاء ٢١

المبحث الثاني: ما المطلوب لكي نتمثَّل قيم الله في حياتنا وسلوكنا؟ ٢٢

المبحث الثالث: الآثار العمليَّة لحضور الله في حياة المؤمن ٢٤

المبحث الرابع: الشهادة والحضور الإلهيّ ٢٦

المبحث الخامس: ما هي سبل حضور الله في حياتنا العمليَّة ٢٨

الفصل الثّالث: معرفةُ الله كسبيل للكمال البشريّ ٣١

المبحث الأول: التّربيةُ الإيمانيَّة كمدرسة للحُضور الإلهيّ ٣٣

المبحث الثاني: المنهج التربويّ للأنبياء والرّسل ٣٤

المبحث الثالث: معرفةُ الله بين العقل والقلب ٣٦

المبحث الرابع: مساوئ فَصْل المعرفة العقليَّة عن المعرفة القلبيَّة وسلبياتُها ٣٨

المبحث الخامس: فطريَّة معرفة الله وتوحيده ٣٩

الفصل الرّابع: المعرفة هي سبيل الانقطاع إلى الله ٤٣

المبحث الأول: درجات المعرفة ومراتبها ٤٥

المبحث الثاني: شروط معرفة الله ٤٥

المبحث الثالث: مراتب الإيمان ودرجاته ٤٦

المبحث الرابع: مدى إمكانية الرؤية بالقلب ٤٨

المبحث الخامس: السير التكامليّ من واقع الإيمان إلى أفق اليقين ٥٠

أولاً: الارتباط بين الإيمان والذكر ٥٠
ثانيًا: الارتباط بين الذكر والحبّ ٥٢
ثالثًا: ا لارتباط بين الحبّ والعصمة ٥٢
رابعًا: الارتباطُ بين الحبّ والانقطاع ٥٣
خامسًا: العلاقةُ بين الانقطاع واللقاء ٥٤

الفصل الخَامس: التّوحيد عقيدةً ومعرفةً ٥٧

المبحث الأول: الغايةُ من وراءِ الدعوة لعقيدة التوحيد ٥٩
المبحث الثاني: في معنى التوحيدين (النظريّ والعملي) ٦٠
المبحث الثالث: لا استثناء في الإيمان العقيدي التوحيدي ٦٣
المبحث الرابع: التوحيد ونظام الولاية ٦٤

الفصل السادس: موانع معرفة الله - الظلم والكفر والتكبر ٦٩

المبحث الأول: الأسس الفلسفيَّة للإنكار ٧١
المبحث الثاني: الظلم والكفر والتكبُّر أساس كلّ احتجاب ٧٢

المبحث الثالث: أصل هذه الحجب وجذرها الحقيقيّ ٧٣
المبحث الرابع: الموانع الدائمة والمؤقَّتة ٧٥

الفصل السّابع: سُبل الكمال وطرقه الأساسيّة (الإيمان-الهجرة-الجهاد) **٧٩**

المبحث الأول: مقوِّمات السلوك التكامليّ ٨١
المبحث الثاني: الإيمان واللقاء ٨٢
المبحث الثالث: الهجرةُ في سبيل الله ٨٥

الفصل الثّامن: كمالُ الإنسان في المسارعة إلى الله **٩٣**

المبحث الأول: كمالُ الهجرة والجهاد ٩٥
المبحث الثاني: المسارعة في طريق الحقّ ٩٦
المبحث الثالث: المسابقة في طريق الحقّ ٩٨

الفصل التاسع: (وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدونِ) - العبوديَّة غاية **١٠٣**

المبحث الأول: العلاقة بين العبوديَّة والفطرة الإنسانيَّة ١٠٥
المبحث الثاني: أنواع البشر وأصنافهم ١٠٦
المبحث الثالث: لماذا العبوديَّة؟ ١٠٧
المبحث الرابع: العبوديَّة لله كممرٍّ إجباري لا مفرّ منه ١٠٨

الفصل العاشر: السّبيل الأوحد للعبوديَّة نحو الله ١١١

المبحث الأول: شروط العبوديَّة ١١٣
المبحث الثاني: سبلُ العبوديَّة وطرقها ١١٥
المبحث الثالث: الالتزام بمقتضيات الشريعة الإلهيَّة كسبيل وحيد ١١٦

الفصل الحادي عشر: موانعُ العبوديَّة لله (الغفلة) ١١٩

المبحث الأول: الغفلة ١٢١
أولاً: موانعُ الارتباط بالحق ١٢١
ثانيًا: معنى الغفلة وحقيقتها ١٢٢
ثالثًا: كيفَ نتعرّفُ على "الغَافلين"؟ ١٢٣

رابعًا: أسبابُ الغفلة وأصلها ١٢٤
خامسًا: نتائج الغفلة وعواقبها ١٢٦
سادسًا: طرق معالجة أسباب غفلة الإنسان ١٢٧
المبحث الثاني: المعتقداتُ الباطلة ١٢٩
أولاً: صلاحُ الإنسان من صلاح إيمانه وعقيدته ١٢٩
ثانيًا: كيفَ تؤثرُ العقيدةُ في "كماليَّة الإنسان"؟ ١٣٠
ثالثًا: النتائج العمليَّة للاعتقاد الفاسد ١٣٢
رابعًا: كيفية علاج أصحاب المعتقدات الفاسدة ١٣٤
المبحث الثالث: الرضا بالحياة الدنيا ١٣٧
أولاً: الاستغراق في الدنيا واعتبارها المنتهى ١٣٧
ثانيًا: أصل منشأ حب الدنيا والتعلق بها ١٣٩
ثالثاً: الدنيا بين المدح والذمِّ ١٤٢
رابعًا: طريقة التخلُّص من مرض التعلق بالدنيا والإخلاد إليها ١٤٥
المبحث الرابع: الذنوب- اتباع الهوى ١٤٨
أولاً: حجابُ الذنب والمعصية ١٤٨

ثانيًا: النتائج السلبية لارتكاب المعاصي والذنوب ---------- ١٤٩
رابعًا: حجابُ الذّات والاستغراق في محبة النفس ---------- ١٥١
خامسًا: النتائج السلبية المترتِّبة على اتّباع هوى النفس ---------- ١٥١
سادسًا: كيفيَّة علاج مرض هوى النفس ---------- ١٥٢

الفصل الثاني عشر: تهذيبُ النّفسِ هو مفتاح إصلاح الإنسان ١٥٣

المبحث الأول: ألدُّ الأعداء ---------- ١٥٥
المبحث الثاني: ماهيَّة "النفس الأمّارة" وحقيقتها الأوليَّة ---------- ١٥٦
المبحث الثالث: لا علاج من دون جهاد النفس وتزكيتها ---------- ١٥٧
المبحث الرابع: تركُ الرَّذائل والأخلاق السّيئة ---------- ١٥٨
المبحث الخامس: التّحلّي بالأخلاق الطيِّبة والقيم الخيرة الفاضلة ---------- ١٦١

الفصل الثالث عشر: الإخلاص ١٦٣

المبحث أول: إخلاصُ القلب لله ،تعالى، والسّعي للقائه ---------- ١٦٦
المبحث الثاني: أصلُ الإخلاص وحقيقته الذَّاتيَّة ---------- ١٦٧

المبحث الثالث: نتائج الالتزام بالإخلاص ١٦٩
المبحث الرابع: طريقةُ تحقّقِ الإخلاص ١٧١

الفصل الرابع عشر: القرآن ثقل الله الأكبر ١٧٣

المبحث الأول: القرآن ركيزة الدين ودستور الحياة ١٧٥
المبحث الثاني: جوهر القرآن الكريم ١٧٥
المبحث الثالث: آداب التمسّك بالقرآن الكريم ١٧٧
المبحث الرابع: آداب القرآن الظاهريَّة ١٧٧

الفصل الخامس عشر: الآدابُ المعنويَّة للقرآن ١٨١

المبحث الأول: تدبُّر القرآن وقراءته بوعي وهدفية ١٨٣
المبحث الثاني: الآداب الواعية والهادفة لقراءة كتاب الله ١٨٤

الفصل السادس عشر: آدابُ القرآن المعنويَّة ١٩٣

المبحث الأول: مَعرفةُ القرآن في أهدافه وغاياته ومقاصده ١٩٥

المبحث الثاني: التفكّر ١٩٦
المبحث الثالث: البرنامج العملي للتّفكر بالقرآن والتّدبر فيه ١٩٧
المبحث رابع: التنفيذ والتطبيق ١٩٨

الفصل السابع عشر: أهل البيت(ع)، الثقل الأصغر ٢٠١

المبحث الأول: المحبة عند الإنسان وأهميتها في حياته ٢٠٣
المبحث الثاني: القلب أمير البدن ٢٠٤
المبحث الثالث: منْ هُم الذين يَجبُ أنْ نحبّهم عملياً؟ ٢٠٦

الفصل الثامن عـشر: كيف نحصّل المحبة الحقيقيَّة لأهل البيت(ع)؟ ٢٠٩

المبحث الأول: محبةُ آل بيت الرسول(ص) سبيلنا إلى الله ٢١١
المبحث الثاني: النتائج العمليَّة للتمسّك بخط آل البيت ومحبتهم ٢١٣
المبحث الثالث: كيف نحب أهل البيت(ع) عملياً؟ ٢١٥

الفصل التاسع عشر: الذّكْر الأكبر لله، تعالى ٢١٩

المبحث الأول: الأمر الإلهيّ بالاستعانة بالصلاة ٢٢١

المبحث ثاني: معنى الصلاة وحقيقتها ٢٢٢

المبحث الثالث: الطُّمأنينة ٢٢٣

المبحث الرابع: التفهيم ٢٢٤

المبحث الخامس: كيفيّة حضور القلب في الصلاة ٢٢٥

المبحث السادس: أسباب عدم حضور القلب في الصلاة ٢٢٦

المبحث السابع: النشاط والبهجة ٢٢٦

الفصل العشرون: الآداب الرُّوحيّة والمعنويَّة للصلاة ٢٢٩

المبحث الأول: التّوجّه إلى عزّ الرّبوبيّة وذلّ العبوديَّة ٢٣١

المبحث الثاني: الخشوع ٢٣٣

المبحث الثالث: الطُّمأنينة ٢٣٩

الفصل الواحد والعشرون: الدُّعاء وسيلة الوصال ٢٤٣

المبحث الأول: أهمِّيَّة الدعاء وقيمته ---- ٢٣٣
المبحث الثاني: الآداب الرُّوحيّة والعمليَّة للدعاء ---- ٢٣٥
المبحث الثالث: موانع استجابة الدعاء ---- ٢٤١

الفصل الثاني والعشرون: الصّبر باب اللقاء ٢٤٣

المبحث الأول: قيمة الصّبر والاستعانة به ---- ٢٤٦
المبحث الثاني: جَوْهر الصّبر وحقيقته ---- ٢٤٦
المبحث الثالث: الصّبر وموضوع "القيادة الإلهيَّة" ---- ٢٤٧
المبحث الرابع: درجات الصّبر ومراتبه ---- ٢٤٨
المبحث الخامس: نتائج الصّبر بحسب ما يراها القرآن ---- ٢٥١

المصادر والمراجع ٢٥٣

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

يتحـدثُ الكتاب عن مجموعةٍ من المعارف التربويّة الأخلاقيّة التي يرسمها الإسـلام للفرد المسـلم في إطار سـعيه لبناء أسس تكامله المعنوي والروحي.. إنها مباني تربويّة أخلاقيّة لتأسـيس الإنسـان الفاضـل الملتزم، والمؤمـن بأن الله تعالى هـو الكمال المطلق في هذا الوجود، وأنّـه يفيض على الحياة والإنسـان معاني الكمال من خـلال إشراقاته وأنـواره وتجلّياته؛ وضرورة أن يتطلّع الإنسـان في جهاده التقوائي لهذا المثال الأعلى والنموذج المثالي، كي يبني حياته ويؤسس وجوده على ضوء هدْيِه وقِيَمِه ومبادِئِه، في انفتاحه على قيم الحق والخير، وأخلاق الرسالة الأصيلة.

- الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز -

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد